الباب الثالث

السلوك الفطرى والدوافع الفطرية

الفصل السادس : المدخل للسلوك الفطرى

الفصل السابع : تحليل السلوك الفطرى

الفصل الثامن : الانفعالات

الفصل التاسع : الاستهواء

الفصل العاشر : المشاركة الوجدانية

الفصل الحادى عشر : التقليد

الفصل الثانى عشر : اللعب

الفصل الثالث عشر : نقد وتقدير لنظرية الغرائز ، الحاجات ، والاتجاهات ، والدوافع

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل السادس

المدخل للسلوك الفطرى

مقدمة :

مما يساعدنا على فهم طبيعة سلوك الانسان وعلى سهولة توجيهه الوجهة المنتجة أن نعرف بشيء من التحديد اذا كان ما يقوم به الانسان هو نتيجة انطباعه بطابع البيئة ، أم نتيجة العوامل الفطرية الموجودة فيه ، أم نتيجة فعلهما معا .

وقد بحث المفكرون فى هذه المشكلة واتجهوا فيها اتجاهات متعددة ؛ فقد ذهب « لوك Locke » الى أن عقل الطفل صفحة بيضاء ينقش فيها المربى ما يشاء ومعنى هذا أن ما نسميه بالحياة العقلية كله نتيجة لأثر البيئة . وألمح «روسو» الى أن سلوك الطفل جميل وخطير بطبيعته ، ولا يفسده سوى تدخل الكبار . كانت هاتان المحاولتان وغيرهما محاولات شبه ارتجالية . ولكن اتجه بعض الباحثين الى حل المشكلة عن طريق الموازنة بين سلوك الانسان وسلوك الحيوان ، وعلى أساس هذا المنهج رأى « ديكارت » أن الحيوان كالآلة المعقدة التركيب المجردة من الحياة العقلية . ورأى أن الانسان كالحيوان الا أنه يزيد عليه فى أمرين ، وهما التفكير والارادة . وقد سبق « ديكارت » فى هذه البحوث بعض الأئمة من فلاسفة العرب الذين أجمعوا على أن بالنفس ثلاثة أقسام : النفس الشهوية ، والنفس الغضبية ، ويشترك فى هذين الانسان والحيوان . أما النفس الناطقة فانها خاصة بالانسان (١) .

وقد أفاد العرب فى اتجاهاتهم هذه من فلسفات «أرسطو» و« أفلاطون» .

---

(١) ارجع الى الرسالة الاخلاقية لـ « يحيى بن عدوى » والى رسالة كيمياء السعادة للامام « الغزالى » .

وهناك اتجاه آخر ، وهو أن الفرق بين الانسان والحيوان هو فى أن الحيوان يعبر فى سلوكه عن « غرائزه[1] » وأما الانسان فانه يعبر فى سلوكه عن تفكيره وارادته . ويرى فريق آخر أن سلوك الانسان به بعض بقايا من سلوك الحيوان . وهذه الزوائد أو البقايا من سلوك الحيوان يجب القضاء عليها عند الانسان .

ويلاحظ فى هذه الاتجاهات — عدا الاتجاه الأخير — اغفال للاتصال المستمر والتطور التدريجى من حياة الحيوان لحياة الانسان . وكذلك اغفال أن التفكير والارادة — بصورهما البارزة — من مظاهر الحياة للبالغين . بينما كان الواجب لحل هذه المشكلة توجيه عناية أكبر لدراسة سلوك الأطفال .

طريقة الدراسة :

ومن كل ما تقدم يمكننا أن نفهم مبلغ أثر ظهور نظرية التطور فى دراسة السلوك ، اذترتب على ظهورها استغلال القائمين بدراسة السلوك للطريقة التتبعية « Genetic Method » والطريقة المقارنة « Comparative Method » . فبالطريقة التتبعية نأخذ الوظائف العقلية أو نواحى السلوك ، وندرسها عند الحيوانات الدنيئة ، ثم نتتبعها تصاعديا حتى نصل الى أرقى مراحلها عند الانسان ، وبذلك نفهم الكثير من سلوك الانسان ، وكذلك نأخذ الوظائف العقلية ونواحى السلوك عند الانسان ، ونتتبعها تنازليا حتى نصل الى أحط مراحلها عند الحيوان . وعلى ضوئه نفهم الكثير من سلوك الحيوان . وأما الطريقة المقارنة فهى ترمى الى موازنة سلوك الانسان البالغ بسلوك الطفل ، وسلوك المتمدين بسلوك البدائى ، وسلوك الانسان العادى بسلوك الشاذ ، الى غير ذلك . وهاتان الطريقتان تكمل احداهما الأخرى .

أوجه الشبه بين الانسان والحيوان :

أدى هذان النوعان من طرق الدراسة الى ابراز الشبه العظيم بين سلوك

---

(١) كان لهذه التفرقة اثر سيىء فى تفكير المحدثين أنفسهم ، ففهموا الغرائز على أنها وحدات موجودة قائمة بذاتها يصدر عنها السلوك .

الانسان وسلوك الحيوان . فعند كل من الانسان والحيوان نجد أن العين مثلا تطرف للضوء الشديد المفاجىء . واذا وخزنا يد قط مثلا بابرة فانه يضمها اليه بسرعة كما يفعل الانسان تماما فى هذه الحالة . كذلك يغضب كل من الانسان والحيوان اذا أوذى أو هوجم ، وينزع مع غضبه هذا الى مقاتلة من يؤذيه أو يهاجمه . ونجد كذلك ما يدل على أن الكلب الصغير يشعر بالمذلة والخنوع بجانب الكلب الكبير الضخم . وهذا يشبه ما نجده فى الانسان العادى من علامات المذلة والخنوع عندما يقف أمام رئيس ، أو أمام رجل عظيم كزعيم وطنى أو دينى . وكما يخرج الانسان لكسب الرزق لاطعام أولاده وايوائهم يخرج الحيوان للبحث عن فريسة أو طعام يقدمه لصغاره . وكما تصنع الحمامة عشها لتضع بيضها فيه تعد الأم البشرية عدتها للوضع بطريقة تشبه فى جوهرها طريقة بعض أنواع الحيوان .

وأكثر من هذا كله نجد فى الحيوان ما يدلنا على قدرته على نوع من التصرف أو « التفكير » . فقد وضع أحد علماء النفس «شمبانزيين» فى غرفة علق فى سقفها مقدارا من الموز ، ووضع فى نفس الغرفة ثلاثة صناديق ، فأخذ «الشمبانزيان» ينظران الى الموز ، ويصرخان كالأطفال عندما يصرخون أمام الحلوى البعيدة عن متناول أيديهم ، ثم أخذا يلعبان ويحركان الصناديق فوصل أحد الصناديق بطريق الصدفة الى ما تحت الموز مباشرة ، فصعد عليه أحدهما . ويظهر أنه أدرك اذ ذاك أن المسافة بينه وبين الموز قد قصرت وقاما بعد ذلك بحركات متعددة انتهت بأن ساعد كل منهما الآخر على وضع الصناديق الواحد فوق الآخر ، ثم صعد أحدهما الى الصندوق العلوى وتناول الموز ، وألقاه الى الأرض ، ثم نزل وأكل هو وزميله ، وتمتعا بثمرة هذا المجهود « الفكرى » العنيف . وهذه التجربة[1] — وغيرها كثير جدا — تدل بلا شك على مقدرة «الشمبانزى» على نوع من الادراك والتفكير ، وتبين كذلك مقدرته على نوع من التفاهم والتعاون[2] .

---

(١) راجع صفحة « ٨٢ » من هذا الكتاب .

(٢) Kohler : Mentality of Apes.

ونستدل من كل هذه الملاحظات على أننا نجد التفكير مثلا فى كل من الحيوان والانسان ، ولكننا نجده فى الحيوان بدرجة أقل مما نجده فى الانسان ، ونجد كذلك النزوع الى الغضب والوالدية والخنوع وغير ذلك فى كل من الحيوان والانسان ، ويمكن وضع قاعدة عامة وهى : أن الفرق بين سلوك الانسان وسلوك الحيوان هو فرق فى الدرجة لا فى النوع .

ويحسن بنا اذن لدراسة النواحى الفطرية أن نجعلها تقوم — كما سبق أن أبدينا — ما أمكن على الطريقة التتبعية ؛ فنبدأ بالسلوك عند الحيوان ، ونتتبعه تصاعديا حتى نصل الى أرقى مراحله عند الانسان . ونبدأ بسلوك الانسان ونتتبعه تنازليا الى أحط المراحل فى سلوك الحيوان ، وعلى ضوء هـذه الدراسة التتبعية بنوعيها نفهم الكثير عن سلوك كل من الحيوان والانسـان .

سلوك الحيوانات الدنيئة :

فاذا تأملنا الحيوانات الدنيئة « كالبروتوزوا » نجـد سلوكها بسيطا (آليا) الى حد كبير ، ولنأخذ مثالا لذلك « الاستنتر Stentor » — وهو مخلوق ميكروسكوبى شكله مخروطى تقريبا ، وله حول الجزء الواسع شعيرات Cilia — فنجد انه اذا سلطنا ضوءا على الجزء الواسع منه فانه يبتعد عنه . فالضـوء هنا هو المؤثر وحركة الابتعاد هنا هى رد الفعـل (أو التلبية أو الرجع) ، ولهذا الحيوان تركيب جسمانى خاص يساعده على استقبال هذه المؤثرات والرد عليها مباشرة . وتبعية الفعل للمؤثر بشكل بسيط ثابت غير قابل للتعديل تجعل السلوك عبارة عن حركة آلية . والواقع أن أهم خاصة للحركات الميكانيكية هى ثبوت تبعيـة الحركة للمؤثر ، وسهولة امكان التنبؤ برد الفعل للمؤثر المادى المنتج له . وفى حالة ابتعاد الحيوان كل مرة يقع الضوء عليه فيها نجد السلوك ثابتا يمكن التنبؤ به ؛ كما نتنبأ باضاءة المصباح الكهربائى فى كل مرة ندير المفتاح المتصل به .

ولكن اذا أخذنا نفس الحيوان السابق الذكر ووضعنا فى السائل الذى يعيش فيه بعض المواد الكيماوية التى تؤذيه ، فاننا نجـده أولا يتلوى مبتعدا عنها ، فاذا لم ينجح هذا التلوى فى الابتعاد به عنها نجده يحرك

الشعيرات التى حول قمته ليبعد بها المواد الكيماوية ، فاذا لم تنجح هذه الحركة فى تخليص الحيوان نجده يتكور ويغلف نفسه بغلافه الخارجى ، فاذا تكررت هجمات المادة السامة نجده يعوم ويجرى من هذه المنطقة كأنما يبحث عن منطقة أخرى . وتدل هذه التجربة على أن الحيوان يغير من سلوكه حتى ينجح فى الابتعاد عما يؤذيه .

فاذا أخذنا نتيجة تجربة الضوء فقط فلا نحتاج الى أن نفترض للحيوان الذى وصفناه شعورا أو ارادة أو رغبة أو تفكيرا . ولكن التجربة الثانية تجعلنا نشك فى أن سلوك الحيوان آلى صرف ، بخلاف التجربة الأولى ؛ فانها لا تدلنا الا على سلوك آلى . حتى اذا سلمنا بأن سلوك الحيوان فى الحالتين آلى ، وانتقلنا الى سلوك الانسان فاننا نجد عنده ما يشبه سلوك « الاستنتور » فيما يسمى بالفعل المنعكس .

الفعل المنعكس :

هناك مجموعة من ردود الأفعال يقوم بها الانسان بطريقة آلية ثابتة ؛ فاذا ازداد الضوء الواقع على العين ضاقت الحدقة واذا قل الضوء اتسعت . واذا دخلت ذرة تراب فى القصبة الهوائية سعل الشخص ، واذا دخلت فى الأنف عطس ، واذا وخزنا رجل النائم بدبوس فانها تتكمش . واذا ضربنا شخصا ضربة سريعة حادة فى موضع معين تحت الركبة فان الساق ترتفع ، واذا وضعنا طعاما فى فم شخص جائع فان لعابه يسيل ، الى غير ذلك .

هذه كلها أفعال آلية ثابتة تتحتم الحصول على كل منها فى حالة احداث المؤثر المناسب . وهذه الأفعال الآلية — وأشباهها كثيرة جدا عند الانسان — تخرج من دائرة الارادة أو التحكم ، وتحدث دون تفكير أو رغبة . وهى تحدث دون شعور منا بالمرة فى بعض الأحيان ، وذلك كما فى حالة ضيق الحدقة واتساعها ، وكما فى حالة انكماش رجل النائم . وهذه الأفعال الآلية تسمى بالأفعال المنعكسة ، وهى شبيهة بما شاهدنا فى سلوك « الاستنتور » لا سيما فى التجربة الأولى .

والفعل المنعكس البسيط يمكن أن يحدث اذا كان هناك تأثير مناسب ، واذا كان هناك تيار عصبى ، واذا كان هذا التيار يصل الى عضلة أو غدة لترد على هذا التأثير . والتيار العصبى يمر فى خيط مستقبل أو حساس ، ثم فى خيط عصبى محرك . وبين الخطين العصبيين ما يسمى بالوصلة العصبية . ونظرا لتعدد الخيوط العصبية وتشعبها عند الوصلة ، فليس من السهل الحصول عند الانسان على فعل منعكس بسيط بالصورة التى ذكرناها ، ولهذا فان النسبة بين الأفعال المنعكسة البسيطة وغيرها عند الانسان نسبة صغيرة .

وتبدو آلية الفعل المنعكس من التجارب التى أجريت على بعض الحيوانات كالكلاب والضفادع . فاذا انتزع مخ الضفدعة مثلا تجد أنها تفقد أهم خواص السلوك التى ذكرناها وهى التلقائية ، فهى لا تتحرك من تلقاء نفسها أبدا ، ولكنها تقوم بحركات ثابتة معينة تحت فعل المؤثرات المناسبة ، فاذا قلبت على ظهرها تعود الى وضعها الطبيعى ، واذا وضعت فى الماء تقوم بكل حركات السباحة ، واذا وضع حامض على رجلها تكمشها ، واذا وضعت على مستوى خشبى مائل فانها تزحف الى أعلى حتى تصل الى وضع مناسب وهكذا . وتختلف الضفدعة التى انتزع مخها عن الضفدعة العادية فى أن الحركة لا بد أن تتبع المؤثر المناسب ، وفى أن الحركة كذلك لا بد أن تقف بزوال المؤثر .

ويلاحظ أن ما يمكن أن يفسر من سلوك الانسان على هذا الأساس الآلى كثير ، ولو أنه فى الواقع ضئيل جدا بالنسبة الى ما لا يمكن تفسيره على هذا الأساس .

الفعل المنعكس الشرطى :

لاحظنا فى الفعل المنعكس أن هناك مؤثرات ، وقد بينت التجارب أن استعداد الكائن الحى للتأثر بهذه المؤثرات يمكن أن يكون طبيعيا فطريا ويمكن أن يكون مكتسبا كما توضح التجربة المشهورة التى أجراها «بافلوف» ، اذ كان يجرى تجارب على الكلاب ، ولاحظ أن لعاب الكلب

يسير لمؤثرات أخرى غير المؤثرات الطبيعية ، فأجرى التجربة الآتية ، وهى : كان يدق جرسا فى نفس الوقت الذى يقدم فيه الطعام للكلب ، وبعد تكرار هذا العمل عدة مرات لاحظ أن دق الجرس وحده كاف لاسالة اللعاب . ويلاحظ أن الطعام هو المثير الطبيعى لسيلان اللعاب ، وأن صوت الجرس ليس مثيرا له ، ولكن اقتران صوت الجرس بالطعام ، وتكرار هذا الاقتران جعل صوت الجرس مثيرا كافيا لاسالة اللعاب ، وسيلان اللعاب لصوت الجرس يسمى فعلا منعكسا شرطيا ، لأنه حدث بشروط معينة ، وهى تكرار اقتران سماع صوت الجرس مع رؤية المثير الطبيعى .

ويرى السلوكيون أن تعلم الانسان والحيوان مبنى على تكوين أفعال منعكسة شرطية ؛ أى أنهم بنوا تفسيرهم لسلوك الانسان المعقدعلى وحدات بسيطة . وهم فوق ذلك ينظرون الى الانسان نظرتهم الى «الاستتور» السابق الذكر ، فكلاهما فى نظرهم آلى السلوك ، الا أن أحدهما بسيط والآخر معقد ؛ ومعنى هذا أن السلوكيين اعتبروا أن الفعل المنعكس هو وحدة السلوك ، وعلى أساس هذه الوحدة يتركب السلوك الانسانى المعقد بكافة درجات تعقيده .

ولكن قل من يقبل هذا الرأى لاعتبارات عدة ، منها أن عملية تكوين الفعل المنعكس الشرطى ذاتها ليست عملية آلية ، وانما هى عملية شعورية تتدخل فيها المراكز العليا للمجموع العصبى ، ومنها كذلك أن المثير المكتسب اذا تكرر عددا من المرات دون أن يصحبه المثير الطبيعى فان قوة المثير المكتسب تضعف . وتزول فى أغلب الحالات ، فكأن الافعال المنعكسة الشرطية ليست لها نفس الآلية الموجودة فى الأفعال المنعكسة الطبيعية .

الأفعال الغرضية :

سبق أن ميزنا بين السلوك الآلى والسلوك العقلى على أساس النظرية الغرضية أو « الهورمية » ورأينا أن بعض أنواع الحركات عند الانسان آلى وسميناه بالأفعال المنعكسة ؛ كانكماش حدقة العين لازدياد الضوء الواقع عليها ، وبعضها غير آلى ؛ كعمليات التفكير ، والحكم ، والرغبة ، وغير ذلك. وسمينا النوع الأخير « سلوكا » ونحتفظ نحن بكلمة السلوك للسلوك

العقلى أو لمظاهر الحياة العقلية ، رغم أن السلوك عند السلوكيين لا يخرج فى طبيعته عن الحركة الآلية أو الميكانيكية .

ويمكننا أن نفترض الآن أن سلوك الكائنات الحية الدنيئة — اذا خرج عن نطاق الحركة الآلية أو الفعل المنعكس — يرمى الى غرض ولو كان من نوع بسيط جدا . ونقصد بالغرض ما يقابل « رغبة » مهما كانت درجة وضوحها ، فالعصفورة « تريد » أن تضع البيض ، والحمامة « تريد » أن تدافع عن صغارها . ولنأخذ لذلك مثالا آخر وهو سلوك نوع من البرقات يتسلق أغصان نوع من الشجر ليأكل الغض من ورقه وبعد أيام يتجه اتجاها مضادا لاتجاهه الأول ؛ فينحدر ليأكل الورق الجاف .

حاول نفر آخرون من أصحاب النظريات الآلية أن يفسروا حركات هذا الحيوان على أنه يتجه مرة نحو الضوء ، وذلك عند تسلقه الى أعلى ، ويتجه مرة أخرى منصرفا عن الضوء وذلك عند انحداره الى أسفل ، وينغير الاتجاه بفعل التغيرات الكيماوية الداخلية الناتجة عن نموه وعما أخذه من غذاء ووصل اليه من نمو جعل حساسيته الكيماوية للضوء تتغير من وقت لآخر ، وليس هذا مكان التوسع فى بسط أو نقد هذا الرأى المعروف بنظرية الانتحاء « Tropism » ، ولكن بدون أى تعسف كهذا فى التفسير يمكن أن نقول : ان الحيوان الصغير الضعيف يبحث عن الطعام الغض الذى يناسب معدته فاذا قوى بحث عن طعام جاف ؛ فنفسر سلوكه على أساس غرض يرمى اليه ، وعلى أساس النزوع أو الاندفاع أو التوجه لتحقيق هذا الغرض .

وقد وجه «مكدوجل» حملات شديدة الى محاولات « لوب » فى تفسير كل مراتب السلوك عند الانسان والحيوان على أساس نظرية الانتحاء ، وهي شبيهة بحملاته التى وجهها ضد النظرية السلوكية ، وقصد بهذا أن يقضى على الاتجاهات المادية فى تفسير السلوك واثبات الاتجاه الغرضى[1] .

ويظهر الغرض بوضوح أكثر كلما ارتقينا فى سلم التطور ، فيظهر

(1) McDougall ; An Ou line of Psychology
: Modern Materialism
: The Battle of Behaviorism

الغرض فى سلوك الكلاب أوضح منه فى سلوك الحشرات،وفى سلوك القردة أوضح منه فى سلوك الكلاب وهكذا .

والذى يمكن أن نستنتجه من هـذه الدراسة السريعة أن الانسان والحيوان يشتركان فى كل أنواع « السلوك » فالانسان عنده الكثير من أنواع « السلوك » الآلى الصرف الذى أشرنا اليه تحت اسم الأفعـال المنعكسة ، وهذه الأفعال المنعكسة تتعدل مكونة الأفعال المنعكسة الشرطية ، وهذه الأفعال المنعكسة لها وظائفها الحيوية (البيولوجية) ، ومن هذه الوظائف مثلا الوظيفة الوقائية ، فالعين تطرف من مرور حركة فجائية سريعة لتقى نفسها ، وتنكمش الرجل عند وخز الابرة لحمايتها وهكذا .

ويدخل تحت الأفعال الآلية ما نلاحظه فى الأطفال من تحريك للرجلين حركات مختلفة مستمرة لا نظام فيها ولا توافق ، وتسمى هذه الحركات بالحركات العشوائية « Random Movements » ، وربما كانت الحكمة فى هذه الحركات أن الطفل يولد ضعيفا ناقص النمو ، فهذه الحركات تمرن عضلاته وتساعده على النمو ، وتصله كذلك بالعالم الخارجى .

وربما قيل : ان الحركات الآلية — من منعكسة وعشوائية — لها كما قلنا غاية أو وظيفة ترمى اليها ، ولكن الرد على هذا هو أن الغاية فى هذه الحالة ليست كائنة فى « ذهن » الحيوان .

وعند الانسان — عدا ما تقدم ذكره من الاستعداد للقيام بحركات آلية — أنواع السلوك التى يظهر فيها الغرض بوضوح ، ولأنواع السلوك هذه استعدادات فطرية سنفصلها فى الصفحات التالية .

على أنه يجب علينا أن نشير هنا الى أن هناك مجموعة مـن العلماء لا يأخذون بالطريقة التتبعية أو المقارنة ، ولا يسلمون بوجود نوع مـن الشبه بين الانسان والحيوان . فهم يدرسون الانسان على حدة ، وكل نوع من الحيوان على حدة . ويرون أنه لا ضرورة لعقـد موازنة كالتى أشرنا اليها . وهذه مدرسة لها تابعوها ، وهى منتشرة فى أمـريكا . أما المدرسة التى تأخذ بطريقة التتبع والموازنة فانها موجودة فى انجلترا ، ولها قوتها ، ولها تابعوها .

المراجـــع

1. Heath : How we Behave.
2. Holmes : The Intelligence of Animals.
3. Kohler : Mentality of Apes.
4. McDougall : The Battle of Behaviorism.
5. " " : Modern Materialism.
6. " " : An Outline of Psychology.

obeikandl.com

الفصل السابع

تحليل السلوك الفطرى

مقدمة :

ذكرنا فى الفصل السابق أهم ما وجهنا اليه «داروين» بأسلوبه الذى أدى الى كشف نظرية التطور ، والذى أدى الى ادراك الصلة ، والاستمرار ، والتشابه بين مراتب الكائنات الحية المختلفة . وكان هذا الكشف مصدر الوحى لعلماء النفس الحديثين وعلى رأسهم « وليم جيمس » و« مكدوجل » وغيرهما ، فدرسوا — كما قلنا — سلوك الحيوان فى مراتبه المختلفة ، وهدموا الفكرة القائلة بوجود فرق أساسى بين الانسان والحيوان ، والتى تتضمن أن الانسان محكوم بعقله أو بذكائه ، والحيوان محكوم «بغريزته» ووصلوا الى أن « الغرائز » ثابتة فى تركيب العقل البشرى ، وأن الذكاء — بظهوره ونموه فى مراحل التطور — لم يحل محل «الغرائز» وانما كان عاملا مهما فى ضبطها ، وتعديل توجيهها . وهذا الكشف لم يبرز بهذه الصورة الواضحة الا فى أوائل القرن الحالى ، ولعل السبب فى تأخر ظهوره هو تعقد سلوك الانسان ، وكثرة العوامل التى تتحكم فيه ، مما جعل طبائع الانسان لا تظهر عادة بصورها النقية الواضحة .

وحيث اننا نسلم بالاتصال بين الحيوان والانسان فخير طريقة لدراسة السلوك الغريزى[1] فى صورته النقية هو أن ندرسه أولا فى الحشرات والحيوان.

---

(١) غريزة معناها طبيعة ، وغريزى معناه طبيعى ، وذلك بحسب ماجاء بالقاموس المحيط ، فالسلوك الغريزى معناه السلوك الطبيعى ، أو الفطرى ، أو السلوك غير المتعلم . ولا شك انسان فى أن هناك تشكيلات من السلوك الغريزى واضحة عند الحيوان والحشرات . وأقل وضوحا من هذه الوجهة عند الانسان .

مثال للسلوك الغريزى أو الفطرى :

قام «فابر» بدراسة نوع من الزنابير اسمه «الزنبار الوحيد» بعد خروجه مباشرة من طور العذراء . خرج الزنبار وأراد أن يضع بيضه ، ولكن قبل أن يفعل ذلك بحث عن نوع من الديدان ، ولسع الدودة التى وجدها فى مركز من مراكزها العصبية ، وأحدث بها شللا ؛ ولكنه لم يقتلها ، ثم أخذها ووضعها فى عشه ، وكرر هذه العملية الى أن امتلأ العش بالديدان ، ووضع البيض عليها ، وأقفل العش بالطين ثم مضى الى حال سبيله . فقس البيض ، وخرجت منه الديدان ، فوجدت لحما طازجا محفوظا ؛ لا ميتا ولا متعفنا فعاشت عليه الى أن كملت دورتها ، وخرجت الى الحياة تقوم بنفس العملية التى قام بها أسلافها . هذا السلوك المعقد الذى لم يخطىء فيما اتجه اليه ، والذى لم يسبق أن تعلمه الزنبار ، والذى تم بغاية الدقة وبدرجات كبيرة من التعقيد يسمى سلوكا غريزيا ، وهو سلوك فطرى بدليل أن الزنبار لم يتعلمه ، وبدليل أنه عام فى أفراد الجنس كله ، وبدليل أنه ثابت من حيث وقت ظهوره ودقة ترتيبه . وفوق هذا كله فانه يؤدى غاية حيوية فى تحقيق استمرار النوع .

تحليل السلوك الغريزى أو الفطرى :

واذا لاحظنا الحشرات على اختلاف أنواعها نجد أنها لا تضع بيضها الا حيث تخرج صغارها فتجد الطعام الصالح لها ، وواضح هنا أن الحشرات تسترشد فى هذا العمل بالادراك . فادراك رائحة اللحم العفن يجذب نوعا من الذباب لوضع بيضه عليه ، ورائحة الجبن الطازج كذلك تجذب الذباب المعروف لنا لوضع بيضه عليه[1] ، وألوان الزهور تجذب النحل الى تمييز الزهور التى بها رحيق من غيرها ، فتندفع اليها وتمتص منها الرحيق .

(١) وهذا هو السبب فى أن الجبن الذى يصنع عندنا فى القرى تتكون فيه الديدان ، فالديدان ما هى الا يرقات الذباب عند فقس بيضه ، ثم تتحول هذه اليرقات بدورها مكونة ما يسمى بـ « الدعبس » ، وما « الدعبس » هذا الا ذباب صغير الحجم ، ولنفس السبب جرت عادة الناس على وضع قطعة من الليف على فوهة الوعاء الذى يحفظ فيه الجبن ، فهذا الليف يساعد على خروج (الدعبس) منه .

فالفعل الغريزى يتميز هنا بادراك الزهور ، بل بتمييز زهور خاصة من غيرها.

وقد درست حياة الحشرات من هذه الناحية دراسة وافية ، فتبين أن بعضها على درجات كبيرة من التعقيد ، كما نرى فى الحياة الاجتماعية للنحل والنمل مثلا ، وفيما يقوم به النوعان من ادخار وغير ذلك .

وفى المراحل الراقية عن مراحل الحشرات نجد الطيور والحيوانات الثديية . وكثيرا ما نجد لدى الطيور أفعالا غريزية قليلة التعديل، فالعصفورة بعد أن تلقح تطير فى جد واجتهاد باحثة عن الأعشاب الجافة وقطع الطين ، وتظل تبنى عشها باحكام ، وعند ما تفرغ من بنائه ترقد فيه لتضع البيض . فاذا باضت رقدت عليه ليستمر دافئا . فاذا فقس عاملت صغارها بحنو بالغ وأطعمتها الى أن يتم نموها وتكبر وتنصرف الى سبيلها .

وكذلك السنجابى وهو حيوان ثديى شبيه بالقط له ذيل كبير ، ويعيش فى الأشجار فى البلاد الباردة من المناطق المعتدلة . وأحب شىء اليه هو البندق ، ومن عادته أن يجمع البندق . ويحفظه فى عشه، وبهذا يجده اذا قلت كمياته فى الشجر أو وجده غير ناضج . اذا أخذناه من صغره ، وعزلناه عن بقية أفراد جنسه ، ثم أعطيناه كمية من البندق — بحيث يكون قد رأى البندق لأول مرة فى حياته — فانه يكسر بعضه ويأكله، ثم يحفر حفرة ليخبىء فيها ما تبقى . ومن الأفعال الغريزية أيضا ما نلاحظه من سلوك القط فى حضرة الكلب ، ومن سلوك كل من القط والفأر فى حضرة الآخر [1] .

توضح لنا كل هذه الأمثلة ما يطلق عليه عادة اسم « الغريزة » ومن ثم ننتقل الى تعريفها .

عرف « هربرت سبنسر H. Spencer » « الغريزة » بأنها فعل منعكس مركب، أو بأنها سلسلة متعددة الحلقات، وكل حلقة منها تكون فعلا منعكسا بسيطا ، فرؤية العشب الجاف بحسب رأى «سبنسر» تؤدى الى التقاطه ، والتقاطه يؤدى الى بنائه فى هيئة عش ، وبناء العش يؤدى الى الرقاد فيه ، والرقاد فيه يؤدى الى وضع البيض . وهكذا يصبح السلوك الغريزى فى نظر « سبنسر » مجموعة من الحركات الآلية يتبع بعضها بعضا . وكل حركة منها

(1) يرى بعض الناس ان هذا سلوك مكتسب وليس فطريا . وواضح ان رأيهم هذا بعيد المنال ، وانا لست ممن يوافقون عليه فى الوقت الحاضر .

رد فعل لمؤثر ، وكل حركة تصير بدورها مؤثرا لرد الفعل التالى . واذا بدأت من سلسلة العمل الغريزى حلقة تتبعها الحلقة الثانية فالثالثة ، وهكذا بالترتيب .

ولكن يعترض على هذا الرأى بأن الأفعال المنعكسة يمكن أن تتم دون أن يكون للشعور فيها دخل . وأما الفعل الغريزى فيصاحبه الشعور بمظاهره الثلاثة المعروفة ؛ ففيه الادراك ، وفيه الوجدان أو الانفعال ، وفيه النزوع أو الرغبة أو الاندفاع . وقد رأينا فيما سبق أن النحلة تدرك الزهرة ذات الرحيق ، والذبابة تدرك رائحة الجبن أو اللبن ، والزنبار يدرك نوع الفريسة التى يشلها ثم يسحبها ، وفى أثناء سيره يدرك اقترابه من عشه ، وبعد دخوله يضع الفريسة ، ثم يدرك أن العش قد امتلأ فيسده ، وكذلك العصفورة تدرك العشب الصالح لبناء العش وهكذا . فعنصر المعرفة أو الادراك موجود مع الفعل الغريزى . ومن الملاحظات الغريبة أن الزنبار بعد أن يبنى عشه يطير فى شكل حلقات تتسع بالتدريج كما لو كان يدرس المنطقة التى بنى عشه فيها حتى تسهل عودته اليه[1] .

ويغلب أن رؤية الزهرة أو شم الجبن أو غير ذلك يستثير ناحية شعورية أو عقلية ، ويثير انتباه الحيوان ، وفى الوقت نفسه يثير استعدادات «فسيولوجية» للقيام بعمل خاص ؛ فللعصفور استعداد جسمى «فسيولوجى» خاص يدخل كعامل هام فى بعض السلوك الغريزى ، فهو يرى الطين ، أو يشم رائحته ، ويلقطه بمنقاره ، وللزنبار استعداد «فسيولوجى» جسمى خاص فله حمة يلسع بها فريسته ، وله كذلك مجموعه العصبى ، فهو مهيأ لأن يتأثر بمؤثرات حسية معينة أكثر مما يتأثر بغيرها . وكذلك نجد أن القط يتأثر لرؤية الفأر أكثر مما يتأثر لرؤية غيره من الأشياء[2]

وفوق ما تقدم نجد الوجدان[3] ظاهرا فى الأفعال الغريزية ، ولو أنه لا يسهل علينا رؤية مظاهره فى الحشرات أو الطيور ، وذلك لأن تركيب جسم

(١) ٣٠٢٠١) وهذا يتفق تماما مع ما اتجه اليه العلماء الامريكيون المحدث عن الدوافع الاولية دون « الغرائز » (راجع صفحة ٤٢ ـ ٤٦ من كتاب الدوافع النفسية ، طبعة أولى » للدكتور « مصطفى فهمى » (غير انهم راوا استعمال مصطلح « الدوافع » بدلا من مصطلح « الغرائز » وهذا ما لانعارض فيه . ولو أن ماصاحب كلمة instincts فى تاريخ العلم باللغة الانجليزية ليس هو بعينه ما صاحب كلمة « غرائز » فى تاريخ العلم باللغة العربية .

الحشرة أو الطير بعيد عن تركيب جسمنا لدرجة تجعلنا لا ندرك ما عنده من حالات انفعالية الا بشيء من المران والجهد .

ونحن نعلم أن قرب الحيوان منا فى سلم التطور يقربه منا فى الشكل والتركيب الجسمى ، ويمكننا فى الوقت نفسه من ادراك العلامات الظاهرة للانفعال . فكلنا ندرك ان كان الفرد منا غاضبا أو فرحا أو حزينا . وندرك هذا بوضوح أقل فى القردة ، ولكنا مع ذلك ندركه الى حد ما . وندرك انفعالات الكلاب بوضوح أقل مما ندرك به انفعالات القردة ، وندرك فى القطط والخيل أحيانا بعض دلائل الانفعال ، فندرك فيها السرور والزهو والخوف والألم وغير ذلك . وبوضوح أقل من هذا ندرك ما يظهر من علامات الانفعال على أنواع الكائنات التى تقع فى مراتب تطور أقل من المراتب السابقة ، فندرك فيها الخوف والألم بعض الادراك . وهكذا تقل درجة ادراكنا لانفعالات الحيوان كلما بعد عنا فى سلم التطور ، فاذا وصلنا الى الزنبار يصعب علينا أن نلاحظ ما قد يكون عنده من حالات سرور عند رؤيته فريسته ونجاحه فى لسعها وحملها الى عشه . ويصعب علينا رؤية ما قد يكون عنده من علامات الغضب أو الخوف . ومع ذلك فاذا دققنا الملاحظة فاننا نرى هذه العلامات بعد المران وبذل الجهد .

وأننا جميعا نرى أن انفعال الخوف ظاهر فى الفأر عندما يرى القط ، وانفعال الغضب ظاهر فى الكلاب عندما ترى القطط ، وانفعال الغضب ظاهر فى الطير عندما تقترب لتغتصب منه صغاره . وكذلك يرى المدققون والخبيرون انفعالات مختلفة فى الثعابين والتماسيح والحشرات وغير ذلك .

وقد قام دارون[1] بدراسات واسعة النطاق على أنواع الحيوان والانسان ، وقد بين مواقف التحدى والخوف والغضب والتهديد والحنو والكراهية فى الحيوان ، وبين مظاهر هذه جميعا عند الانسان وأنواع الحيوان . وبين أوجه الاشتراك التشريحية ، وأوجه الشبه التعبيرية فى هذه جميعا وهى دراسة يجدر بكل محدث أن يدرسها رغم ما يقال عنها من أنها قديمة .

وأما الناحية النزوعية أو الحركية[2] فانها ظاهرة فى الأفعال الغريزية .

---

(١) Charles Darwin : The Expression of the emotions in man and animals : Thinkers Library.

(٢) نحن هنا نقول : ان النزوع هو الحركة ، وهذا تجوز منا ، فالحركة هى التعبير الظاهرى الذى يؤدى الى تحقيق النزوع .

فرؤية القط للفأر تثير فى القط انفعال الغضب ، وفى الحال نجد القط مندفعا للافتراس ، فاذا هرب الفأر انطلق القط وراءه وظل هذا يهرب وذاك يثابر الى أن ينجح الفأر فى الهروب ، أو ينجح القط فى الافتراس ، ثم يهدأ القط هدوءا تاما .

نرى من هذه الأمثلة أن مواقف أو مؤثرات حسية خاصة تستثير فى الحيوان استعدادات عقلية وعصبية ، وهذه تؤدى الى شدة انتباه الحيوان الى هذا الشيء أو الموقف الذى صدر عنه التأثير ، ونلاحظ فى أثناء هذا مظاهر انفعالات خاصة ، كالغضب ، أو السرور ، أو الألم . ونلاحظ أيضا سلوكا خاصا كالهرب أو الافتراس ، أو على الأقل نلاحظ نزعة نحو هذا السلوك. ونقصد بالنزعة هنا أن يشعر الفرد بالرغبة فقط ؛ ولكن قد يكون هناك ما يؤخره عن تنفيذها ، وتنفيذ النزوع يكون عادة بالحركة الظاهرية ، أما النزوع ذاته فهو حالة داخلية نفسية . فاذا أهان رئيس ما أحد مرءوسيه بغير حق فالسلوك الطبيعى للمرءوس هو أن ينتقم من رئيسه ، ولكن لا يمكنه ذلك ، فيشعر بنزعة الى ذلك دون القيام بتحقيق هذه النزعة[1] .

لهذا كله عرف « مكدوجل » الغريزة بأنها « استعداد عصبى نفسانى يجعل صاحبه ينتبه الى مؤثرات من نوع خاص، ويدركها ادراكا حسيا ، ويشعر بانفعال من نوع خاص عند ادراكها ، ويسلك نحوها مسلكا خاصا أو على الأقل يشعر بنزعة لأن يسلك نحوها هذا المسلك » .

هذه ترجمة تكاد تكون حرفية لتعريف «مكدوجل» الذى جاء فى كتابه علم النفس الاجتماعى[2] . واذا تأملنا هذا التعريف نجد أنه لا يعنى أن الغريزة « شيء » يمكن تحديده ؛ وانما هى استعداد للقيام بنشاط ؛ وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول : انها صفة حيوية خاصة .

ورغم أن هذا التعريف قوبل بالحماس لدى علماء النفس عند أول ظهوره فى أوائل القرن الحالى نجد الاتجاه الحديث لا يتقيد بكل هذه التفاصيل التى أدى الى ظهورها تأثر التعريف بملاحظة سلوك الحشرات والحيوان . ومؤلف هذا الكتاب نفسه لا يميل الى التقيد به وان كان يميل الى الاسترشاد به .

---

(١) راجع الفقرة الثانية من « الناحية الشعورية » فى صفحة ٤٦ من كتاب الدوافع النفسية ، الطبعة الأولى ، للدكتور « مصطفى فهمى »
McDougall : Social Psychology.

ويمكن أن نلخص الاتجاه الحديث فى أن الحيوان اذا وجد فى موقف معين — وكان فى حالة نفسية وجسمية خاصة — فانه يحتمل أن يقوم بسلوك لا يشترط أن يكون قد تعلمه فى الماضى . فالغريزة فى هذه الحالة فرض علمى ويمكن تعريفها بأنها استعداد[1] « Tendency » الكائن الحى للقيام بسلوك خاص أو بتشكيلة سلوكية خاصة فى موقف معين أو فى مجال معين (بحسب لغة الجشتالتيين)

وحيث ان السلوك الغريزى أو الفطرى يتضمن تكيفا للكائن الحى ككل ، وحيث انه يتضمن أيضا عند تحليله عناصر الادراك والوجدان والنزوع فان تعريفه بأنه فعل منعكس مركب تعريف غير مقبول .

وهناك أدلة أخرى ندحض بها فكرة «سبنسر» منها أن السلوك الغريزى أو الفطرى لا يسير دائما فى الاتجاه الصواب ، بل يخطىء أحيانا ، فقد تضل الحشرة طريقها ، وقد تخطىء مرماها . ومنها أن أجزاء السلوك الغريزى أو الفطرى لا تسير دائما فى ترتيب واحد . ومن التجارب الطريفة[2] ماأجرى على نوع من الزنابير يبنى عشه من عدد من الخلايا ، وبعد أن ينتهى من احدى الخلايا يأتى بالعناكب الصغيرة ، ويضعها فيها الى جانب البيضة — التى يكون قد سبق أن وضعها — ويسدها ، ثم ينتقل الى خلية أخرى فخلية ثالثة . وهكذا . فلو أن السلوك الغريزى تسير حلقاته بترتيب آلى واحد لا يتغير لما عاد الزنبار فى أثناء عمله الى اصلاح ما سبق له اتمامه .

ولكن القائم بالتجربة كان ينتظر الى أن يتم الزنبار عمله فى خلية ما فيخدشها بدبوس . فاذا أتى الزنبار لعمل الخلية التالية ، ووجد أن الانسان قد أفسد عليه عمله عاد اليه فأصلحه ، ثم سار فى عمل الخلية التالية ، وكرر المجرب تجربته هذه عددا من المرات أيقن بعدها أن تتابع أجزاء السلوك الغريزى ليس تتابعا آليا . ولاحظ المجرب أن الزنبار عندما يعود ويرى أن الخلية التى تمت قد أصابها التلف فانه يقوم بحركات ، ويخرج أصواتا تدل غالبا على ما يشعر به من غضب وتضايق .

(1) Is the Doctrine of Instincts Dead? The British Journol of Educational Psychology 1941, 1942, 1943.

(2) McDougall : Energies of men.

تعدل السلوك الغريزى أو الفطرى :

عرفنا أنه من السهل علينا ملاحظة السلوك الغريزى أو الفطرى فى الحيوانات الدنيئة ؛ كالحشرات ، وفيما هو أرقى منها قليلا ، كالطيور ، وذلك لأن السلوك الغريزى يوجد عندها فى صوره الفطرية . وأما الانسان فان نشاطه الغريزى يتعدل كثيرا بفعل التدبير والذكاء[1] .

ويمكن للتبسيط عرض أنواع التعديل فى تصنيف كالآتى : —

النوع الأول — تعدل من الناحية الادراكية ؛ فبعد أن كانت الدوافع الغريزية تستثار بمثيرات طبيعية فطرية يمكن استثارتها فى مواقف غير المواقف الطبيعية .

النوع الثانى — تعدل من الناحية النزوعية .

النوع الثالث — تعدل بسبب استثارة دوافع مختلفة فى وقت واحد .

النوع الرابع — تنظيم الاستعدادات الغريزية وانفعالاتها حول شىء لتكون ما يسمى بالعواطف ، وسنتناول بالشرح الآن أنواع التعدل الثلاثة الأولى تاركين النوع الرابع لدراسة مستقلة مطولة فى فصل « العواطف » .

النوع الأول : التعدل من الناحية الادراكية :

نلاحظ أن بعض ما كان يستثير السلوك الغريزى أو الفطرى قد لا يثيره فالصوت العالى مثير طبعى لانفعال الخوف ، أو غريزة الهرب ؛ ويستثار الخوف بالأصوات العالية ؛ سواء أكان مقترنا بخطر يؤذى الفرد أو غير مقترن . ولكن قد يتعلم الفرد بالتجربة أن الصوت العالى غير مقترن بخطر فيسمعه دون خوف ؛ كما يحدث فى المحاجر والمناجم ، فالعمال يعملون ولا يبدو عليهم أى خوف . كذلك الدواب التى تعيش فى القرى يبدو عليها الخوف اذا أحضرت للمدن لأول مرة وسمعت صوت السيارات وغيرها ولكنها تعتاد ذلك وتألفه بمضى الزمن ، فالأصوات التى كانت مثيرا طبيعيا للخوف صارت لا تثيره .

وكذلك يحدث أن الأشياء التى لم تكن تثير تشكيلة سلوكية بطبيعتها قد تصير قادرة على اثارتها . فالحمام فى ميادين لندن مستأنس الى حد

---

(١) نسى المحدثون من علماء النفس وعلماء الانثربولوجيا ما قالت به مدرسة الغرائز من قابليتها الشديدة للتعدل ، ونسوا ان هذه القابلية قد تؤدى الى تمويه الجوهر .

كبير ، فتجده يقف على أكتاف الناس ، وعلى أيديهم ، وعلى رءوسهم ، ويفعل هذا بغاية الهدوء والاطمئنان ، وذلك لأن الانسان فى ميادين لندن لا يثير الخوف عند الطير . فالانسان اذن ليس مثيرا طبيعيا للخوف . ولكن فى الجهات التى تعودت صيد الطيور نجد أن الطير يهرب لمجرد رؤية الانسان ، وذلك لأن رؤية الانسان اقترنت بصوت بنادقه المزعجة ، فصارت رؤيته مزعجة ، أى مثيرة لغريزة الهرب . كذلك المدرس ليس مثيرا طبيعيا للخوف عند التلاميذ . ولكن اقتران المدرس بالايذاء فى ذهن التلميذ يجعل المدرس مثيرا للخوف .

وقد أجرى « جيمس » تجربة بسيطة على أفراخ صغيرة (كتاكيت) كان يرمى لها الحب وهو يمشى فكانت تتبعه . واستمر على هذا مدة طويلة ، فكانت الفراخ — وقد كبرت — تمشى وراءه اذا رأته سواء أرمى لها الحب أم لم يرم . وهذا المثال — ولو أنه لا يدل مباشرة على تعدل الغريزة — يجعلنا نقول : ان « وليم جيمس » قد حل فى نظر الفراخ محل الحب . فاستثارة السلوك الغريزى أو الفطرى تتعدل اذن عن طريق الترابط (١) «Association» الذى سنسميه فيما بعد ترابطا بالاقتران Association by-Contiguity» وقد يستثار الاستعداد الغريزى أو الفطرى عن طريق الترابط بالتشابه « Similarity »

فالطفل الذى يستثير خوفه شرطى فى الطريق قد يستثير خوفه أى شخص مرتد كسوة رسمية ، كالسعاة ، ورجال المطافىء ، وغيرهما . وأعرف طفلا كان يخاف من الظلام وهذا خوف مكتسب ، ثم رأى رجلا أسود فخاف منه خوفا شديدا ، فلما سألته : لم تخاف منه ؟ قال لأنه خرج من الظلام . فهذا خوف من الرجل الأسود ناتج من الاقتران بالتشابه .

(١) ليس معنى ذكر الترابط هنا اننا نؤمن بفكرة الترابطيين كنظرية كاملة لتفسير جميع الظواهر العقلية ، فنظرية الترابطيين — كما كانت شائعة فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر — تقوم على نظريات عن العقل والمخ والصلة بينهما تتضمن تفسيرات « فسيولوجية » لترابط الأفكار بعضها مع بعض ، ولا يقر كل التفسيرات أحد من علماء العصر الحاضر . غير أننا نعتد بالترابط الاقترانى حدوث الوقائع مجتمعة وادراكها مجتمعة . وهذا لا يتنافى مع اتجاهات المدارس الحديثة لعلم النفس ، كمدرسة الجشتالت .

ويلاحظ أن ادراك علاقة التشابه عملية عقلية خاصة بالحيوانات الراقية . والانسان قادر على ادراك علاقات كثيرة دقيقة التشابه . وهذا مما يجعل احتمال تعدل التشكيلات السلوكية الفطرية فى الانسان كبيرا جدا ، لأن الاقتران بالتشابه يفتح له ميادين عدة لا تتوفر لغيره من الكائنات .

النوع الثانى : التعدل من الناحية النزوعية :

هذا النوع من التعدل واضح جدا فى حياة الانسان ، ولنأخذ لذلك مثلا الاستعداد للمقاتلة ، وما يصحب استثارته من انفعال الغضب ، ويستثيره كل ما يقف فى سبيل تحقيق النزعات الأخرى . فاذا دفع الجوع بحيوان الى البحث عن الطعام ثم وجده ، وقبل أن يتناوله اختطفه منه حيوان آخر — أى أن الحيوان الآخر لم يسمح له باشباع دافع الحصول على الطعام ؛ حيث وقف فى سبيل تحقيقه — كان هذا مدعاة لغضب الأول وهجومه على الثانى لضربه وعضه ومقاتلته . كذلك الحال فى الانسان اذ يثار انفعال الغضب لديه فى مثل هذه المواقف ، وخصوصا فى الصغر ، ويكون سلوك الطفل بالضرب أو المقاتلة . ولكن يتعلم الانسان بالخبرة طرقا أخرى للسلوك كما يكتسب مثيرات أخرى للغضب . فالذى يثير غضب البالغ قد يكون اتهامه بأن ما يقوله من الشعر مسروق (موقف مثير بالاكتساب) وقد يكون سلوكه فى هذه الحالة نظم قصيدة لهجاء الناقد . ومما يدل على تعدل الاستعداد الغريزى فى ناحيته النزوعية تنوع طرق القتال ، فهناك الملاكمة ، والمصارعة ، والمبارزة ، واستعمال المسدسات ، والسب ، والهجاء ، وتدبير المؤامرات ، والايقاع ، وترويج الشائعات ، وحرب الأعصاب ، وحرب الميكروبات ، والحرب الذرية ، وغير ذلك .

ولبيان تعدل الاستعداد من الناحية النزوعية عند الحيوان نشير الى ما سبق أن ذكرناه عن نوع من الزنابير تبنى أنثاه من الطين فجوة بيضاوية الشكل ، ثم تضع فيها بيضة واحدة ، وتقتل بعد ذلك العناكب الصغيرة ، وتحضرها لتضعها فيه ، وبعد أن تملأ الفجوة تسدها بحصوة صغيرة وبعض من الطين ، ثم تبنى بجانبها فجوة أخرى ، وتضع فيها بيضة ، ثم تملؤها بالعناكب ، ثم تسدها ، وهكذا الى أن تعمل ما يقرب من اثنتى عشرة حجرة .

وبعد ذلك تلف كل هذا بغلاف من الطين والحصى لتحفظه . وهى تسير فى هذا بطريقة منظمة ، فتنتهى من خلية ، ثم تعمل الخلية الأخرى ، وهكذا . فقام أحد المشاهدين — كما قلنا — بخدش الناحية التى أتمتها ؛ فبدلا من ان تستمر فى عملها بطريقة آلية أصلحت ما أفسده الانسان ، وعادت الى عملها ، فعاد هو عدة مرات الى عمل خدش آخر ، فأصلحته . فلو أن السلوك آلى لما تناوله التعدل فى الناحية التنفيذية للنزوع .

ومن أهم عوامل التعدل من الناحية النزوعية ما يصيب السلوك من نجاح أو فشل ، فالسلوك الذى ينجح فى تحقيق الغاية يثبت . وأما غيره فانه يضعف أو ينمحى . فاذا أخذنا الاستعداد للمقاتلة نجد أن الانسان لا يمكن فى مجتمع متمدن أن ينجح بأساليب المقاتلة البدائية — من ضرب ، وعض ونهش — فيتعدل سلوكه بما يتفق مع اتجاهات المجتمع الراقى .

ويساعد على تعدل السلوك الغريزى أو الفطرى تغير الظروف تغيرا يجعل السير الطبعى له غير كاف لتحقيق الغرض ؛ كما يتبين فى تجارب الزنابير التى سبقت والتى سيأتى ذكرها .

النوع الثالث لتعدل الفعل الغريزى أو الفطرى :

أما النوع الثالث للتعدل فهو ناشىء من استثارة أكثر من دافع واحد فى وقت واحد ، فيحدث أن يستثار البحث عن الطعام والخلاص من الخطر فى نفس الموقف . فالجائع يبحث عن الطعام ، فاذا وجد طعاما لا حق له فى الحصول عليه فقد يدفعه الجوع لأخذه ، ويمنعه الخوف (أو غير الخوف) من ذلك .

ويحدث أحيانا أن أرى شيئا غريبا ، فيدفعنى حب الاستطلاع لفحصه ودرسه ، ويمنعنى الخوف من القيام بذلك . ونجد فى بعض المواقف امكان الجمع بين دافعين كالمقاتلة والوالدية فى حالة العتب ، فاذا وجدت أن ابنك قد أتلف شيئا عزيزا على نفسك ، فالاتلاف يثير الغضب والمقاتلة ، والابن يثير الوالدية والحنو ، فيكون السلوك فى هذا الموقف سلوك عتب ، لا سلوك توبيخ أو ضرب . وفى بعض المواقف الأخرى نجد من العسير

الجمع بين دافعين كما فى البحث عن الطعام والتقزز ، فلا يسهل عليك أن تأكل ما تشمئز منه .

فى كل هذه المواقف نجد أن السلوك الغريزى أو الفطرى يتعدل بسبب ما يستثار معه من دافع غريزى أو دوافع غريزية أخرى فى نفس الموقف .

مدى التعدل فى الفعل الغريزى الواحد :

ذكرنا أن الاستعدادات الغريزية تتعدل من ناحيتها الادراكية والنزوعية ، فالى أى حد تتعدل فى ناحيتها الانفعالية ؟

لنأخذ الاستعداد للمقاتلة ؛ نلاحظ أن الانسان يتعدل سلوك المقاتلة عنده من الناحية الادراكية ، فيغضب الانسان اذا أوذى أو أهين فى كرامته ، أو اذا رأى ظلما يقع على ضعيف وهكذا ، ويكون سلوكه ازاء هذا اما بالضرب أو النقد أو الشكاية للبوليس أو غير ذلك ، ومهما كانت الناحية الادراكية أو النزوعية فان انفعال الغضب موجود ثابت لا يتغير من حيث النوع ، وان تغير فى درجته .

كذلك الخوف ؛ فقد تخاف الظلام أو الأصوات المزعجة أو الرسوب فى الامتحانات أو غير ذلك ، ولكن الخوف ثابت فى كل حالة لا يتغير فى طبيعته ؛ وان تغير فى شدته .

وانفعال الحنو كذلك ثابت ؛ ولو أنه يكون أحيانا موجها نحو الأطفال أو الحيوانات أو العجزة أو المرضى او غير ذلك .

ففى حالة استثارة الدافع الواحد قد يحدث التعدل فى أى ناحية ما عدا الناحية الانفعالية ؛ فانها ثابتة من حيث نوعها وان تعدلت من حيث درجتها .

فكأن ما قصد بالتعدل من الناحيتين الادراكية والنزوعية هو كسب مثيرات جديدة فى نوعها ، وكسب أنواع جديدة من السلوك . أما عن الناحية الانفعالية المصاحبة لدافع كالمقاتلة مثلا فلا يمكن تغيير الغضب بانفعال آخر غيره ، وهكذا الحال فى باقى (الغرائز) .

وثبوت الانفعال من حيث نوعه فى السلوك الغريزى الواحد جعل

للانفعال أهمية خاصة فى نظر بعض علماء النفس ، فاتجهوا لتسمية « الغرائز » بأسماء انفعالاتها ، فهم يتكلمون عن « غريزة » الغضب « وغريزة » الخوف .

السلوك الغريزى والذكاء :

ثبت لدينا أن السلوك الغريزى الواحد يتعدل عادة فى ناحيتيه الادراكية والنزوعية ، أو الاستقبالية والحركية . ونلاحظ أن هذا التعدل كثير الوقوع عند الحيوانات الراقية ، وكلما ارتقى الحيوان فى سلم التطور زادت مرونته وقابلية سلوكه للتعدل ؛ أى قلت صلابة «غرائزه» وجمودها ، وزادت ليونتها وقابليتها للتعدل . وهذه القابلية للتعدل مظهر من مظاهر الذكاء الذى نلاحظ زيادته كلما ارتفعنا فى سلم التطور .

فالحشرات بها تشكيلات سلوكية جامدة الى حد بعيد ، وهى قليلة الذكاء ، قليلة القابلية لتعدل هذه التشكيلات . ولكننا مع ذلك رأينا فى الملاحظة السابقة على الزنبار الذى يملأ عش بيضه بالعناكب أن لديه مقدرة على التصرف ، والتصرف عنوان الذكاء .

وقد قام « فابر » بتجربة على نوع من الزنابير سبقت الاشارة اليه (ص ١٤٥) ليرى مقدار ما لديه من ذكاء . ذكرنا أن هذا الزنبار يبنى عشه ، ثم ينطلق الى نوع من الديدان ، فيلسع احداها لسعة تشلها ولا تقتلها . ثم ينقلها الى عشه ، ولكن لايدخل بها العش مباشرة ، بل يتركها عند فوهته ويدخل ويدور فى العش دورتين ، ثم يخرج ويسحب فريسته . ويقفل العش على الفريسة ، ويضع البيض عليها ، وينطلق هو الى سبيله . فاذا ما فقست البيضة وجد الكائن الحى الناتج لحما طازجا يتغذى به حتى يكتمل نموه ويخرج من عشه .

لاحظ «فابر» هذا الزنبار يقوم بعمله على الصورة الفطرية الطبيعية ، ولكن عندما ترك الزنبار فريسته عند فوهة العش عمد « فابر » الى نقلها بعيدا ، فخرج الزنبار وبحث عنها ثم أعادها ، ولكنه لم يستفد مما حدث ، فتركها عند الفوهة ودخل ودار دوراته المعروفة ، ثم خرج فوجد أن

الفريسة قد نقلت . وهكذا كرر فابر نقل الفريسة ، وكرر الزنبار تركها بالباب ، ثم فحص العش الى أن عيل صبر «فابر» ، واعتقد أن قالب السلوك عند الزنبار جامد لا مجال فيه للتغير أو الاستفادة .

ولكن جاء بعد ذلك عالمان وهما « بكهام » وزوجته وكانا يتناوبان العمل . وكررا العملية التى قام بها « فابر » مرات عدة تزيد عن مائة الى أن استفاد الزنبار وأخذ الفريسة داخل العش ، ولم يتركها عند الفوهة .

فكأن الزنبار أثبت أن لديه قسطا قليلا من الذكاء استعان به على الوصول الى غرضه رغم ما اعترضه من صعوبات .

ولا نرمى الى الاتيان بأمثلة من جميع مراحل التطور . ولكن الواضح أن القابلية لتعدل الغرائز تزداد كلما ارتفعنا فى سلم التطور . وهذه القابلية للتعدل أو التعلم تتمشى مع ذكاء الحيوان ومع مرونة أعصابه ، لأن مرونة الأعصاب يمكن أن تكون مقياسا من مقاييس القابلية للتعلم .

ونلاحظ أيضا ملاحظة أخرى وهى أن القابلية للتعلم تتمشى مع مدة الطفولة . فالحيوانات الدنيئة تولد مكتملة النمو ، قادرة على أن تعيش قائمة بذاتها . وكلما ارتفعنا فى سلم التطور نجد أن الحيوان يولد ضعيفا ، فالطيور التى هى عادة أذكى من الحشرات تولد ضعيفة ولها مدة طفولة ، ثم هى أكثر قابلية للتعلم من الحشرات ، كذلك القطط نجد أن مدة طفولتها أكبر من مدة طفولة الطيور ، وقابليتها للتعلم أكثر ، واستعداداتها السلوكية أقل من مرونتها . فاذا ارتفعنا الى مرتبة أرقى من السابقة ، وهى مرتبة القردة مثلا نجد أن غرائزها غاية فى المرونة ، وأن قابليتها للتعلم كبيرة جدا ، وأن مدة طفولتها كبيرة أيضا يكتمل فى أثنائها نمو الحيوان . فاذا ارتفعنا الى الانسان نجد أنه أضعف المخلوقات جميعا عندما يولد ، فاذا ترك وشأنه فانه يموت . وهو يختلف فى هذا عن الحشرات الصغيرة . ويصحب هذا الضعف مدة طفولة طويلة ، ومرونة كبيرة ، وذكاء عظيم ، وقابلية كبرى لتعدل السلوك وللتعلم .

وكل هذا يدلنا على أهمية مدة الطفولة من حيث التعلم ، ومن حيث سهولته وامكانه . ويدلنا أيضا على أن الاستعداد الغريزى والذكاء يعملان

جنبا الى جنب ، ويكمل كل منهما الآخر ، فاذا كان قالب السلوك الغريزى كاملا ، وعلى درجة من الكفاية تكفى لمساعدة الحيوان على أداء وظائفه البيولوجية ، فان الحاجة للتصرف والذكاء تكون قليلة . فالحشرة التى تخرج من طور العذراء تكون قادرة — بما لديها من أساليب السلوك الفطرية الكاملة — على الاستقلال ، وعلى حماية نفسها ، والحصول على غذائها ، وعلى التوالد ، والتكاثر ، وحاجتها الى الذكاء قليلة . ولكن الحيوان الراقى كالقرد أو الانسان يولد ضعيفا جدا وفى حاجة شديدة الى عناية والديه ، وعند ولادته تكون عنده استعدادات للسلوك ، ولكنها قليلة الكفاية تحتاج الى زمن طويل تنمو وتقوى فيه ، وهى ليست مصبوبة فى قوالب جامدة محدودة كما هى الحال فى الديدان والحشرات ، فازاء هذا نجد لدى الحيوان الراقى من الذكاء ما يعوضه النقص فى اكتمال استعداداته الغريزية .

ويمكننا بوجه عام أن نقول كلما ارتفعنا فى سلم التطور قل الجمود فى قوالب السلوك الغريزى ، وزادت قدرة الحيوان على التصرف ، وعلى الاستفادة من خبرته السابقة .

هذه هى العلاقة الكمية بين الاستعداد الغريزى أو الفطرى والذكاء ، وبينهما كذلك علاقة وظيفية ترتبط بالعلاقة الكمية . فالدافع الغريزى هو الذى يدفع الكائن الحى للقيام بالسلوك اذا توافرت عدة شروط يرتبط بعضها بالموقف وبعضها يرتبط بالكائن الحى نفسه . وأما الذكاء فانه يرشده فى أثناء هذا فيدرك الموقف ويحلله ، وقد يتصرف على ضوء ادراكه تصرفا يساعده على حسن تحقيق أغراضه . فاذا كان الرجل جائعا فانه يبحث عن طعامه ، فاذا لم يجد طعاما فانه يبحث ، ويفكر ، ويتأمل ، ويتذكر ، وقد يجرى التجارب الى أن يصل الى طعام يسد به رمقه،فاذا كان الدافع الغريزى يدفع الكائن الحى فان الذكاء يرشده لتحقيق دوافعه . ولزيادة فهم الصلة بين الاستعداد الغريزى والذكاء نشبه الموقف كله برجل يريد أن يصل الى هدف معين فى الظلام فيستعمل مصباحا يضىء لنفسه به الطريق ، ويرشده حتى يصل الى هدفه سالما .

ونظرا لاكتمال نمو الحيوان الدنيء ، ولبساطة الظروف المحيطة به ،

ولتحدد الوسائل التى تقضى بها أغراضه تكون الحاجة الى الذكاء قليلة . وأما الحيوان الراقى فنظرا لتنوع مطالبه ، ولتعدد الوسائل التى يمكن قضاء أغراضه بها ، ولتعقد بيئته تكون الحاجة الى الذكاء والتصرف كبيرة .

وبذلك ندرك أن بين الصلة الكمية والصلة الوظيفية للاستعدادات الغريزية والذكاء تطابقا يكاد يجعلهما صلة واحدة .

ويمكننا أن نلخص الموقف بأن نقول : ان الاستعداد الغريزى هو القوة الدافعة ، وأما الذكاء فانه القدرة المرشدة الموجهة .

تقسيم الاستعدادات الغريزية :

لم يكن من السهل الوصول الى تقسيم مرض للاستعدادات الغريزية يتفق عليه علماء النفس أو عدد كبير منهم . ولعل السبب فى هذا هو صعوبة الفصل عند الانسان بين السلوك الغريزى الفطرى والسلوك الغريزى المعدل . فالانسان منذ أول وجوده يتأثر بما حوله ، وعند ولادته يتأثر بميراث اجتماعى قوى[1] ويتكيف تبعا لمعاملة من حوله ، وتبعا لما عنده من ذكاء وعوامل أخرى . لهذا كانت عملية الفصل بين هذه العوامل المتعددة أمرا عسيرا ، وكان من المنتظر ازاء هذا أن يختلف الباحثون فيما يصلون اليه من تقسيمات .

ولكن هناك بعض قواعد جرى عليها العلماء للتقسيم؛فعند بعض العلماء نجد الأساس هو السلوك نفسه . فيكفى أن يكون السلوك الظاهرى غير مكتسب عن طريق التعلم ، ويكفى كذلك أن يكون عاما عند أفراد الجنس كله ، حتى يعتبر سلوكا غريزيا . ولهم عند الانسان قاعدة ثالثة وهى أن يشترك معه فى السلوك غيره من الحيوانات الراقية . ولكن هذه المجموعة من العلماء ركزت عنايتها فى السلوك نفسه أو الحركة الظاهرية التى يقوم بها الحيوان . ولهذا السبب وضعوا قوائم طويلة بما سموه أشكال السلوك الغريزى عند الانسان ومن هذه الأشكال ما يأتى : —

(١) يرى بعض الناس ان هذه الفكرة كافية لدحض فكرة الاستعداد الغريزى ، ولكننا نؤمن بالاستعدادات أو الاتجاهات الفطرية ، ونؤمن كذلك بأن أثر البيئة واضح منذ اللحظة الأولى .

الأكل — وضع الأشياء فى الفم — المسك — الأخذ — الصيد أو القنص — الجمع — المنافسة — المقاتلة — الغضب وغير ذلك .

ويتزعم هؤلاء العلماء « ثورنديك » اذ وضع للانسان ما يقرب من مائة نوع من التشكيلات السلوكية الغريزية[1] .

وهناك جماعة أخرى من الباحثين نظروا الى الغاية الحيوية (البيولوجية) التى يرمى اليها السلوك . والذى ننتظره من دراسة تقوم على هذا الأساس أنه كلما بعدت الغاية قل عدد الغرائز ، وكلما قربت زاد العدد . فيرى « فرويد » مثلا أن الغاية الأساسية فى حياة الكائن الحى هى المحافظة على النوع ، ولذا كانت «الغريزة» الأساسية هى «غريزة» التكاثر أو «الغريزة» الجنسية . ويتفق مع «فرويد» فى هذه الناحية كثيرون من أتباعه ممن كرسوا حياتهم لدراسة الحياة الجنسية . ويرى آخرون أن هناك غايتين «بيولوجيتين» أساسيتين ؛ احداهما : أن يحافظ الفرد على نفسه ، والأخرى : التكاثر والمحافظة على النوع . وهاتان الغايتان يمكن اتخاذهما أساسا لتقسيم مظاهر الحياة عند الحيوان وكذلك عند النبات ، وقد وجد بعض الباحثين « تانسلى »[2] أن الغايات الحيوية عند الانسان والحيوان الراقى ثلاث وهى :

١ — المحافظة على الفرد .
٢ — المحافظة على النوع .
٣ — المحافظة على الجماعة .

ولو أن هذه الغاية الثالثة يمكن أن تدخل فى نظر بعض الباحثين تحت الغايتين الأوليين .

وكان من نتيجة هذين الاتجاهين — الاتجاه الأول الذى اعتمد على دراسة السلوك الظاهرى ، والاتجاه الثانى الذى اعتمد على الاهتمام

---

(١) وقد عدل ثورنديك رأيه تعديلا لا يتسع له المقام هنا ولا يتسق مع الاتجاه الذى نكتب عنه ، فيريد أن يرجع بالغرائز الى الجينات او حملة الصفات الوراثية . وهذا مطمع بعيد فى الوقت الحاضر . ولكن لرأيه مغزى هاما وهو توكيد فكرة الوراثية التى يتجه بعض المحدثين الى تجاهلها :
British Journal of Educational Psychology Vol. 12

(2) Tansley : The New Psychology.

بالغايات البيولوجية البعيدة — أن اختلطت فى الاتجاه الأول التشكيلات «الغريزية» بالأفعال المنعكسة ، واختلطت كذلك بالحركات الجسمية الفطرية أيا كانت . وأصبح الباب فوق ذلك مفتوحا لأى عدد يمكن اضافته ونسبته الى « الغرائز » . وأما الاتجاه الثانى فانه أدى الى تقسيم قليل الفائدة من الناحية العملية ، سواء فى ذلك من الناحية التفسيرية أم التطبيقية .

ومن أمثلة هذا الاتجاه الثانى اتجاه «فرويد» و «آدلر» وأمثالهما . فيرى « فرويد » أن كل عمل فى سلوك الانسان يمكن ارجاعه الى الغريزة الجنسية ، وتقوم فلسفة «فرويد» على أن الغاية الأساسية من مظاهر الحياة هى المحافظة على الجنس ، ولهذا يحدث التكاثر ، والتزاوج ، والمحافظة على الذات ، وما الى ذلك . لكن هب أننا نريد أن نفسر حب شخص لمادة رياضية كالجبر أو الهندسة ، فاننا نحتاج الى دوران كثير حتى نصل الى مثل هذا التفسير ، ويبدو التفسير اذ ذاك متعسفا[1] . ومن العسير كذلك ان نفسر بحث الجائع عن طعام أو دفاع المرء عن نفسه ووطنه بتفسيرات « فرويدية » مقبولة .

كذلك «آدلر» يرى أن «الغريزة» التى تفسر كل سلوك الانسان هى « السيطرة » . وتقوم فكرته على فلسفة التطور والترقى والانتقال من حالة الضعف الى القوة ، ومن الخضوع الى السيطرة ، ومن أسفل الى أعلى . هذا هو الأساس الفلسفى لفكرة « آدلر » ، فنظرته الى تطور الكون مبتدئا مما قبل انفصال الأرض عن الشمس ، ثم نظرته الى الكائنات الحية ، ثم الى تطور المدنية جعلته يرى فكرة الانتقال من البساطة الى التعقيد ، ومن الخضوع الى السيطرة ، ومن نوع من الضعف الى نوع من القوة . ورأى فى هذا كله قانونا عاما ، وفى تطبيقه على سلوك الانسان حالة خاصة . ولكن ما سبق أن قلناه عن « فرويد » ينطبق بعينه على « آدلر » بمعنى أننا نحتاج الى شىء من الدوران حتى نفسر الكثير من أنواع السلوك ، فمن العسير تفسير حنو الأم على صغارها واندفاع الجائع لسد رمقه بتفسيرات « ادلرية » دون أن تكون بعيدة المنال .

وأمثال هذه النظريات تفسر بعض الظواهر تفسيرا بسيطا مباشرا مقبولا ، ولكنها لا تفسر البعض الآخر الا بالالتجاء الى شىء من الدوران غير قليل[2] .

---

(1) Freud. Ego and the Id.

(2) Adler. Individual Psychology ; Psyshologics of 1930.

وهناك مدرسة ثالثة وهى المدرسة التى يتزعمها «مكدوجل»، وقد نظرت الى الغاية القريبة التى يؤدى اليها السلوك . ولنضرب مثالا يبين وجهة نظر الاتجاهات الثلاثة :

افرض أن هناك طفلا صغيرا جائعا وجد شيئا ما فى متناوله ، فأخذه ووضعه فى فمه ليأكله ، فاذا أخذنا بالتقسيم المبنى على السلوك الظاهرى قلنا : لدينا هنا « غرائز » المسك ، والوضع فى الفم ، والأكل ، وغير ذلك ، واذا أخذنا بالتقسيم المبنى على الغايات البعيدة قلنا : ان الطفل انما يفعل هذا كله ليحافظ على نفسه واذا أخذنا بالرأى الثالث قلنا أن الطفل انما يفعل ذلك ليأكل ، فالغرض هنا هو الحصول على الطعام ، وأما المسك والوضع فى الفم وغير ذلك فلا تخرج عن كونها أساليب للحصول على الطعام ، وكذلك الرغبة فى المحافظة على النفس لا تدخل فى حساب الطفل ، وانما الذى يدخل فى حسابه أمر آخر ، وهو الرغبة فى الأكل .

ويقوم الرأى الثالث على فكرة الأغراض القريبة التى يرمى اليها الكائن الحى بسلوكه . لنأخذ مثالا آخر : هب أن سيارة مسرعة فاجأتك فى الطريق ، فانك تقفز بسرعة عظيمة من طريقها . فاذا أخذنا بالأساس الأول قلنا بغريزة الهرب ، وغريزة الخوف ، وغريزة الجرى ، وغريزة رفع اليدين وغير ذلك . واذا أخذنا بالأساس الثانى قلنا : انك فعلت ذلك للمحافظة على نفسك ، أو للمحافظة على النوع البشرى عن طريق المحافظة على نفسك . واذا أخذنا بالأساس الثالث قلنا : انك كنت فى موقف يهدد حياتك بالخطر ، أدركته وشعرت بالخوف فيه ، وابتعدت عنه . ولذا نقول حسب الرأى الأخير : ان الغرض هو الخلاص من الموقف الخطر . والنجاح فى الوصول اليه يعيد الى الشخص حالة الاتزان .

وعلى هذا الأساس الثالث وضع « مكدوجل » قائمة الغرائز البشرية :

(١) غريزة الوالدية	—	وانفعالها الحنو
(٢) « المقاتلة	—	« الغضب
(٣) « الاستطلاع	—	« التعجب

(٤) غريزة الخلاص (الهرب) — وانفعالها الخوف
(٥) « البحث عن الطعام — « الجوع
(٦) « النفور — « الاشمئزاز
(٧) « الاستغاثة — « الشعور بالعجز والضعف
(٨) الغريزة الجنسية — « الشهوة الجنسية
(٩) غريزة الخنوع (الاستكانة) — « الشعور بالنقص أو الخنوع
(١٠) « السيطرة (التسلط) — « الزهو
(١١) « التملك — « حب التملك
(١٢) « الحل والتركيب — « حب العمل والنشاط
(١٣) الغريزة الاجتماعية — « الشعور بالوحدة
(١٤) غريزة الضحك — « التسلية

وقد أضاف « مكدوجل » الى هذه القائمة فى أواخر أيامه أربع غرائز اخرى هى: البحث عن الراحة بأن يزيل المرء عن جسمه ما يعطيه شعورا غير مريح ، والنوم فى حالة التعب ، والتنقل لرؤية المناظر غير المألوفة ، ومجموعة غرائز بسيطة ترتبط بالحاجات الجسمية العادية [1] .

ويرى بعض العلماء الذين يميلون الى تجميع الغرائز تحت أسماء قليلة أن الغرائز التى وضعها « مكدوجل » يمكن أن تقع تحت الأقسام الثلاثة الآتية :

(١) غرائز ذاتية أو فردية لحفظ الفرد ، ويدخل تحتها الهرب ، والبحث عن الطعام ، والسيطرة ، الى غير ذلك .

(٢) غرائز لحفظ النوع ، ويدخل تحتها الوالدية والجنسية .

(٣) غرائز اجتماعية لحفظ الجماعة ، ويدخل تحتها الغريزة الاجتماعية ، والمقاتلة . ويلاحظ أن المقاتلة — وكثيرا غيرها — تدخل تحت هذه الأنواع الثلاثة .

وهناك تقسيمات أخرى لا تعنينا هنا ، ويكفى أن نشير اليها اشارة بسيطة ، منها تقسيم « شنيدر Schneider » للغرائز الى موجبة كالجنسية والبحث عن الطعام ، وفيها يتقدم الكائن الحى الى الموقف المثير للغريزة ، وسالبة كالهرب ، وفيها يبتعد الكائن الحى عن الموقف المثير للغريزة .

(1) McDougall : Energies of Men.

ورأى آخر يقسم الغرائز الى محافظة ، كالبحث عن الطعام والخلاص والتقزز . ومخاطرة ، كالمقاتلة والحل والتركيب .

ويلاحظ أن هذين التقسيمين الأخيرين عامان بدرجة تجعلهما قليلى القيمة من الناحية التفسيرية للسلوك مثلهما فى ذلك مثل التقسيمات التى قدمها كل من « تانسلى » و « فرويد » و « آدلر » .

هذه هى أهم الاتجاهات المعروفة التى انتهت الى وضع قوائم للغرائز ، وهناك اتجاه آخر رأى الاستغناء عن نظرية « الغرائز » استغناء تاما . هذا الاتجاه أخذت به مدرستان تناقض كل منهما الأخرى مناقضة تامة ، واحدى هاتين المدرستين مدرسة « واطسون[1] » الذى يرى — كما قلنا — أن سلوك الانسان يمكن تفسيره على أساس الفعل المنعكس كوحدة للسلوك ، وعلى أساس ما يبنى على الفعل المنعكس الطبعى من أفعال شرطية . أما المدرسة الأخرى فهى التى يتزعمها « جون ديوى[2] » ، ومن رأيه أن الكائن الحى فى أثناء اتصاله بالبيئة يقوم بنشاط وظيفته التكيف بين الكائن الحى والبيئة . ويتكلم « ديوى » عن الدوافع ، والنزعات ، والرغبات ، ونحو ذلك ، ولكنه يؤكد أن أى محاولة لوضع تقسيمات للغرائز محاولة فاشلة وغير علمية ، اذ أنه يرى أن الخوف انواع عديدة ، فالخوف من سوء السمعة غير الخوف من الثعابين وهذا ينطبق فى رأيه على كل ما يسمى عند غيره انفعالات و « غرائز » ، ولكن « مكدوجل[3] » يرى أن أساس هذه النظرية المحدودة ا « جون ديوى » أن دراساته لم تقم على تعمق فى دراسة الحيوان ، ولكن « ديوى » يبدو منطقيا فى هذا مع فلسفته التى تنكر الحق المطلق .

ويتخذ الجشتالتيون موقفا شبيها بموقف « ديوى » من حيث انكار التقسيم الى غرائز[4] . وقد تأثر الامريكيون باتجاهات « ديوى » و « واطسون » و « الجشتالتيين » ، فهم لا يريدون أن يرسموا الحياة النفسية بادىء ذى بدء .

Watson. Behaviourism.

(2) J. Dewey. Human Nature and Conduct.

(3) McDougall. An Outine of Psychology.

(4) Wheeller. The Science of Psychology.

والمسألة كلها فى نظرهم « كائن حى » « وبيئة » ، وللكائن الحى مجاله الداخلى النفسى والعصبى . وللبيئة مجالها الطبيعى والاجتماعى ، والكائن الحى يتكيف للوصول الى حالة اتزان فى وسط هذه المجالات المليئة بخطوط القوى المتعددة المختلفة . وبهذا نكون قد وصلنا الى حالة من العموم انعدمت فيها كل التفاصيل . حقيقة أن هذا الاتجاه تتوافر فيه الفكرة « الديناميكية » . ولكن الذى نلاحظه أن المحدثين فى علم النفس يريدون أن نأخذ بهذه الفكرة ، وبفكرة أن هناك قوى دافعة يرثها الانسان ؛ ولكنهم يقفون موقفا سلبيا من تقسيم هذه القوى أو تعديدها . وكل نقدهم لنظريات « الغرائز » انها تحدد القوى النفسية ؛ أو — كما يقولون — ترسم الحياة النفسية بادىء ذى بدء . والموقف السليم هو أن يثبتوا بالأساليب العلمية الايجابية عدم وجود ما أثبت وجوده العلماء الآخرون .

وموقف المدارس الأمريكية أن تكون هناك مرونة ، وألا يكون هناك تحديد . فاذا كان المقصود بعدم التحديد الوصول الى فكرة « الكلية » فان ذكر التفاصيل لا ينقص الكلية ؛ فنحن نعلم أن وضوح التفاصيل يخدم فى العادة الصفة الكلية فى الكل ؛ فاذا اتضحت أجزاء الوجه اتضح الوجه ككل والعكس أيضا صحيح .

لنأخذ مثالا لذلك جسم الانسان فهو يعمل ككل ، ولكن به أجزاء وأجهزة واضحة متميزا بعضها عن بعض ، ويعمل بعضها مع بعض ، وكذلك الحياة النفسية لها كليتها ولها تفاصيلها . يقول « ديوى » : هناك خوف من الأماكن العالية ، وهناك خوف من سوء السمعة ، وهناك خوف من الثعابين . ويقتضينا البحث العلمى فى الصفات الجوهرية المشتركة أن نقول: ان هناك خوفا ، وانه يظهر عند الانسان وعند الحيوان ، وانه صفة مشتركة فى الكائنات الحية ، فهى « طبيعية » أو « غريزية » فى الحياة النفسية . ونقصد هنا أنها اتجاه ، أو قوة ، أو مصدر من مصادر الطاقة .

وليس معنى هذه المناقشة أننا نريد ان ننسخ نظرية لنحل محلها أخرى ، ولكن معناه أن نبرز ما فى كل نظرية من مزايا ومآخذ ، وأن نعلق أحكامنا ، فقد نصل الى رأى آخر يختلف عن كل ما أشرنا اليه .

الغرائز ومحاولة تفسير السلوك :

نشأت الصعوبة فى ادراك موضوع الغرائز من أنه ليس هناك أمور محسوسة يمكن تسميتها « الغرائز » بخلاف الفعل المنعكس ، فهناك مؤثر ثابت ورجع ثابت وممرات عصبية معروفة ، لذلك لم ينشأ خلاف على الفعل المنعكس ولا على أنواعه ، أما الغرائز — أو الاستعدادات الغريزية : أو القوى النفسية الفطرية — فانها مرنة قابلة للتعدل ، وقد استنتجها الباحثون بطرق غير مباشرة كمقارنة الانسان بالحيوان .

ونقول « استنتجوها » لأنه لا يمكن ملاحظتها ، ولذا فهى لا تخرج عن كونها فروضا افترضوها لنفسر بها السلوك عند الانسان أو الحيوان[1] ويمكن أن تبقى هذه الفروض قائمة ما دامت ناجحة ، ففى حدود الحقائق الموجودة الآن تنجح « الغرائز » كما فصلها « فرويد » و « مكدوجل » و « آدلر » فى تفسير السلوك عند الانسان والحيوان ، فاذا أخذنا ظاهرة كظاهرة التدخين مثلا يمكننا أن نقول : ان وراءها غرائز ك « السيطرة » و « الاجتماعية » و « الاستطلاع » ، فالسيطرة تفسر سلوك الولد عندما يدخن ، ويشعر بذلك أنه كبر أو يريد أن يكبر . وان التدخين اسلوب يصل به الى مستوى الكبار ، والاجتماعية تفسر كيف أن التدخين أسلوب بسيط فى السلوك اذا قام به أكثر من فرد واحد فى مكان واحد فانه يربطهم بعضهم ببعض ، والاستطلاع يفسر كيف أن سيجارة يدخنها الفرد انما يدخنها للاستطلاع ، والتجريب ، ولمعرفة طعم الدخان ، وكيف توقد السيجارة ، وكيف تنتهى .. الخ .

ويلاحظ أن « السيطرة » و « الاجتماعية » و « الاستطلاع » هنا كلها دوافع أو قوى ، فالدافع للسيطرة والدافع للاجتماعية والدافع للاستطلاع ، كل من هذه يدفع الانسان للقيام بهذا السلوك .

وفى غالب الأحيان تكون هناك دوافع غير مباشرة للسلوك ، فحب

(1) Hocking says. Our ideas of our original nature must always be a result of abstraction. "Human Nature." p. 77.

العلم والانكباب على طلبه قد يكون بدافع مباشر وهو دافع الاستطلاع وقد يكون بدوافع أخرى كالمقاتلة للتغلب على مشكلة معينة ، أو البحث عن الطعام أو غير ذلك ، وهذه دوافع غير مباشرة الا أن صلتها بالغرض ليست بعيدة . ولكن قد يكون طلب العلم بدافع تحسين الذات حتى تروق فى نظر شخص آخر يميل اليه طالب العلم ، وفى هذه الحالة قد يكون الدافع الجنسى بطريق بعيد غير مباشر دافعا الى الانكباب على طلب العلم . ونرى من هذا أن الدوافع قد تكون ذات صلة مباشرة بالغرض الذى يرمى الفرد الى تحقيقه وقد تكون ذات صلة غير مباشرة مع تفاوت فى درجة عدم مباشرتها .

ويمكننا أن نقول الآن : ان « الغرائز » هى دوافع أو قوى فطرية تدفع الكائن الحى للسلوك ، وان « الغرائز » — كدوافع فطرية — فرض علمى يساعدنا على تفسير السلوك ، ولنا الحق فى استبقاء نظرية « الغرائز » على هذا الأساس ، ولنا الحق فى تعديلها أو احلال أخرى فى مكانها تكون أقرب الى تفسير الحياة العقلية وتصويرها .

ومن هذا كله ينتقى الاعتراض القائل : ان فكرة الغرائز رجوع الى نظرية تقسيم العقل الى قوى عقلية مختلفة مستقلة ، فالغرائز بالصورة المعروفة لا تخرج عن كونها فروضا علمية تيسر لنا فهم السلوك ووصفه ، وتيسر لنا كذلك سبل توجيهه الوجهة الصالحة . ويقال : ان الخطر فى ضيق التفسير والتصوير فيخشى أن يقوم أحد المربين بتصور أن تلميذا معينا تحتاج غريزة المقاتلة عنده الى شىء من التقوية والتدريب . ولكن اذا فعلنا هذا فاننا نحيد عن طريق الصواب الذى يقيدنا بفكرة الكلية — الى جانب الغرضية والوظيفية — فبناء على فكرة الكلية نجد الدوافع الفطرية والمكتسبة يخدم بعضها بعضا ، ويتعاون بعضها مع بعض بصورة متماسكة تجعل من العسير علينا فى حياة الواقع أن ندرك أحدها منعزلا عن الآخر .

ويحسن بنا أن ننبه هنا الى أن أئمة المشتغلين بعلم النفس لاحظوا

صدوفا عن نظرية « الغرائز » ، فعقدوا مناقشة طويلة انتهوا منها الى أن نظرية « الغرائز » ، قائمة ، وأن ما يمكن أن يتناولها من التعديل يمسها فى بعض تفاصيلها لا فى جوهرها[1] . ولهذا فنحن لا نتمسك بتقسيمات «مكدوجل» تمسكا جامدا ؛ وانما الذى نتمسك به أن هناك دوافع فطرية يمكن تسميتها بأى اسم مناسب

الصفات الأساسية للسلوك الغريزى :

لهذا كله يحسن وضع أهم الصفات التى تسهل علينا معرفة « الغرائز » وتحديدها قدر الامكان ، ويمكن ايراد هذه الصفات فيما يأتى :

١ — العموم : فالتشكيلة الغريزية عامة فى أفراد الجنس بغير استثناء ، فسلوك الجمع نجده عاما فى أفراد السنجابى فى كل زمان وفى كل مكان .

٢ — الثبوت : فالاستعداد الغريزى ثابت لا يمكن استئصاله ، ولو أنه يختلف فى الدرجة اختلافات واسعة النطاق شأنه كشأن أى صفة فطرية .

٣ — الاستمرار : ويقصد به استمرارها فى أكثر من مرتبة واحدة من مراتب التطور ، والتشكيلات الغريزية للانسان نجدها فى الحيوان الراقى كالثدييات .

٤ — الفطرية : أى أن الفعل الغريزى فطرى لا يعلّم ؛ ولو أنه قابل لتعدل كبير .

٥ — الظهور فى مراحل من النمو تكاد تكون ثابتة . فهناك تشكيلات سلوكية فطرية تظهر عند ميلاد الانسان كـ « البحث عن الطعام » ، وهناك ما يظهر متأخرا قليلا كـ « الاجتماعية » و « السيطرة » و « المقاتلة » ، ومنها ما يظهر بعد ذلك كـ « الجمع » ، ومنها ما يظهر فى النصف الأول من العقد الثانى كـ « الجنسية » . أما توجيه هذه النزعات وجهات معينة فلا شك أنه متوقف على البيئة .

٦ — القيمة الحيوية : فللنشاط الغريزى وظيفة حيوية (بيولوجية) بالنسبة للكائن الحى .

---

(1) Is the Doctrine of Instincts Dead ? By Burt, Myers, Drever, Thorndike, Pear & Vernon.
British journal of Educational Psychology 1941, 1942, 1943.

٧ — التخصص فى نوع الموقف الذى يثير النشاط الغريزى ، وفى نوع السلوك — أو التشكيلة السلوكية — الذى يؤدى الى تحقيق غايته .

٨ — وجود مظاهر الشعور الثلاثة فى حالة قيام الكائن الحى بسلوكه الغريزى .

٩ — لكل دافع غريزى انفعال مصاحب (ويختلف بعض العلماء على هذه النقطة) .

١٠ — للتشكيلة السلوكية الغريزية فى العادة أسس جسمية « فسيولوجية »

١١ — التشكيلة السلوكية الغريزية — كأى تشكيلة سلوكية أخرى — نتاج اتصال بين مجال بيئى خارجى ومجال حيوى داخلى .

المراجع

1. British Journal of Educational Psychology 1941, 1942, 1943
2. Dewey : Human Nature and Conduct.
3. Hocking : Human Nature p. 77.
4. McDougall : Energies of Men.
5. " " : Social Psychology.
6. " " : An Outline of Psychology.
7. Tansely : The New Psychology.
8. Watson : Behaviorism.
9. Wheeler : The Science of Psychology.
10. Darwin : The Expression of the Emotions in man

obeikandl.com

الفصل الثامن

الانفعال والسلوك

الصلة بين السلوك الغريزى والانفعال :

عرفنا أن السلوك الغريزى يتميز باتصال نواح فسيولوجية ، كما يتميز بثلاث نواح هامة ؛ وهى : ناحية الادراك ، وناحية الوجدان أو الانفعال ، وناحية النزوع . ونعلم أن الحالة الانفعالية — بحسب رأى مكدوجل — هى المميز الرئيسى الثابت فى السلوك الغريزى ، فبينما نجد الفعل الغريزى قابلا للتعدل فى ناحيته الاستثارية الادراكية ، والنزوعية والتنفيذية نجد الحالة الوجدانية ثابتة . فنجد أن ما يثير تشكيلة غريزية معينة قد يصير غير قادر على استثارتها ، وبالعكس مالا يثيرها بطبيعته قد يكسب القدرة على استثارتها ؛ فقد يستثير فى الطفل غريزة الهرب رؤيته لمدرسه مع أن المدرس ليس مثيرا طبيعيا لها ؛ ولكنه صار كذلك بعد أن اقترن فى ذهن الطفل بمواقف الشدة ، أو بالظلم أو بالارهاب . كذلك النزوع الغريزى ، فانه يتعدل ، ويأخذ أشكالا مختلفة ، فطريقة الهرب من موقف مخيف تختلف من شخص الى آخر[1] ، ولكن مهما تعدلت الخواص الادراكية والنزوعية فعنصر الخوف ثابت من حيث نوعه على الأقل . كذلك الوالدية بما فيها من انفعال الحنو فانها تكون نحو الأولاد ، أو نحو الضعفاء ، أو نحو الأطفال عامة ، أو نحو الأمة كلها ؛ ولكن الانفعال أو الوجدان الذى يصحبها فى كل حالة هو الحنو .

ولعل ثبوت الانفعال — برغم تغير الناحيتين الادراكية والنزوعية — هو الذى سهل لـ « مكدوجل » الكشف عن أنواع التشكيلات الغريزية المختلفة .

---

(١) لعل فى هذا ما يكفى لتوكيد أهمية أثر البيئة .

ونلاحظ أن الانفعال المصاحب لبعض التشكيلات السلوكية الغريزية يكون واضحا كما فى حالة الهرب ، والوالدية ، والبحث عن الطعام ، وفى البعض الآخر يكون غامضا كما فى الحل والتركيب ، أو التملك . وحتى فى السلوك الغريزى الواحد نلاحظ أن الانفعال أحيانا يكون واضحا وأحيانا غير واضح . فمما لا شك فيه أن الزهو الذى يصحب النزوع الى السيطرة لا يكون بدرجة واحدة فى جميع المواقف .

فكأن النزعات الغريزية فى مجموعها تختلف بعضها عن بعض فى درجة وضوح الانفعال المصاحب . كما أن النزعة الغريزية الواحدة تختلف عند الأشخاص المختلفين وعند الشخص الواحد فى المواقف المختلفة من هذه الناحية ، وهى ناحية درجة وضوح الانفعال المصاحب .

ولعل من أسباب هذا الاختلاف أن بعض المواقف يتطلب اجراء سريعا ، وبعضها لا يتطلبه أو يتطلب اجراء بطيئا ؛ فالمقاتلة تختلف عن الاستطلاع فى هذه الناحية ؛ اذ لا شك أن السلوك المصاحب للمقاتلة أسرع فى العادة من السلوك المصاحب للاستطلاع . وفى المواقف المختلفة المؤدية للمقاتلة يكون الانفعال عنيفا جدا ان كان الشخص يقدم على القتال ، ويكون فاترا ان كان يتروى قبل الأخذ بثأره . كذلك فى المواقف المؤدية للاستطلاع تجد نفسك فى حاجة للتأمل والفحص ، فيكون انفعال الاستطلاع هادئا . ولكن هب أنك كنت فى « ترام » متحرك ولمحت فى « ترام » آخر يسير فى اتجاه مضاد شبها لشخص عزيز عليك لم تره من سنوات ، فانك تشعر اذ ذاك بانفعال واضح عنيف . ومن عوامل وضوح الانفعال المصاحب فى هذه الحالة قصر الزمن ، وسرعة الاجراء المطلوب فى هذا الموقف

وهناك مشكلات متعددة متعلقة بالصلة بين التشكيلة السلوكية الغريزية والانفعال لا يتسع هذا المجال لنقاشها ، ولكننا نشير اليها اشارة بسيطة . فيرى البعض مثلا أن الانفعال لا يظهر مع السلوك الغريزى الا فى حالة ظهور عائق يقف فى وجه تحقيق الرغبة الغريزية ، ولكن يصح أن نسأل أنفسنا عما اذا كان الانفعال فى هذه الحالة هو الانفعال المختص بالسلوك

الغريزى أم هو انفعال آخر ، لنضرب لذلك مثلا بالنزعة الجنسية ؛ فهذه اذا استثيرت يظهر انفعال الشهوة الجنسية واذا وقفت عوائق فى سبيل تحقيق هذه النزعة فان الذى يحدث هو أن الشهوة الجنسية تقوى ؛ لظهور سرعة الرغبة فى تحقيق الدافع الجنسى ، ولكن يظهر مع ذلك الدافع للمقاتلة والانتقام ، خصوصا اذا كان العائق مانعا حقيقيا ، وتفتح لنا هذه الناحية مشكلة أخرى ؛ هى : هل ما يظهر من انفعالات فى مثل هذه المواقف يكون بسيطا أو مركبا من انفعالات عدة ؟ الى غير ذلك من المشكلات العديدة ، التى اختلف عليها العلماء الذين بحثوا فى موضوع الغرائز .

ولكن الذى يهمنا أن نؤكده الآن هو أنه من الممكن أن ترى انفعالا يصاحب كل تشكيلة سلوكية غريزية،غيرأن هذه الانفعالات بعضها واضح، وبعضها غير واضح . وهو واضح فى التشكيلات التى يتضح فيها الاساس « الفسيولوجى » أو الجسمانى ؛ كالجنسية والبحث عن الطعام . وهذا التغير فى درجة الوضوح هو الذىألقى بعض الشك على نظرية «مكدوجل» فى الغرائز . فيرى الكثيرون انه لا ضرورة لتكوين التلازم بين انفعال من نوع معين و « غريزة » معينة .

تحليل الانفعال :

تطلق كلمة انفعال على الحالات الوجدانية العنيفة ، وعلينا أن نتذكر أن الخوف مثلا له درجات مختلفة ، وأن حالات الخوف المتباينة لا يختلف بعضها عن بعض من حيث النوع[1] فالخوف أمام وحش كاسر على وشك أن يهجم عليك هو فى نوعه كالخوف عندما تريد أن تقفز من مكان عال يبلغ ارتفاعه ثلاثة أو أربعة امتار ، ولكنه يختلف عنه فى درجته فقط

ويجب أن نفرق دائما بين أمرين هما :

— الحالة الانفعالية ؛ كالشعور بالألم اذا لامست يدى النار ، والشعور بالخوف اذا أدركت نفسى فى خطر .

(١) هذا على خلاف مع رأى « ديوى » الذى أثبته فى كتابه :
Human Nature and Conduct.

٢ — الاحساسات أو الادراكات المختلفة المسببة لهذا الشعور .

وهذا تفريق بين نواحى الشعور الثلاث ، فالشعور بالالم عند ملامسة النار مثلا شعور ذاتى (داخلى) وأما الاحساس فهو نتيجة مباشرة لأمر موضوعى ؛ وهذا الامر الموضوعى هو النار[1] .

ويستعمل الناس عادة كلمة انفعال لتدل على معان مختلفة ، أحيانا تؤخذ متفرقة وأحيانا تؤخذ مجتمعة ، فيعتبرون أن الانفعال هو الشعور الخاص ؛ كالألم مجردا من أى عنصر آخر ، وأحيانا يعتبرونه المظهر الجسمى الذى يصحب الانفعال ، وأحيانا يأخذونهما معا . والذى أدخل المظهر الجسمى هو أن كل حالة انفعالية يصحبها تغيرات جسمية نشعر ببعضها ولا نشعر بأغلبها .

وعلى العموم ينبغى أن نتذكر دائما أن كل حالة انفعالية يمكن تحليلها الى العناصر الثلاثة المعروفة ، فالتقزز مثلا يحوى فى العادة ما يأتى :

(١) الشعور التقززى الخاص .

(٢) احساسات خاصة صادرة من الجسم المسبب للتقزز .

(٣) حالة نزوعية ترمى الى التخلص من الجسم المسبب للتقزز .

ويوجد فوق ما تقدم تغيرات جسمية عضوية تصحب التقزز .

فلدينا اذن الانفعال ، ونواح ادراكية تسبقه وتصحبه ، وتغيرات جسمية « لا ارادية » نشعر ببعضها ولا نشعر بأغلبها ، وحالة نزوعية .

ونعبر عادة عن الحالة النزوعية قائلين : دفعنى الغيظ الى الانتقام ، وهممت بالهرب من شدة الخوف الى غير ذلك .

التغيرات الجسمية والانفعال :

لنذكر تجربة من التجارب العدة التى أجراها « كانون »[2] حديثا لملاحظة ما يصحب الانفعالات من تغيرات جسمية ، فقد فحص بوساطة أشعة « روتتجين » قطة بعد أن تناولت غذاءها ، فرأى ان المعدة تقوم

(١) راجع موضوع الشعور .

(2) Cannon : Bodily changes in Hunger, Fear and Pain. Cannon : The Wisdom of the Body.

بحركتها المنتظمة بعملية الهضم . ثم أحضر أمامها كلبا غاضبا كبير الحجم ، فلاحظ أن عملية الهضم وقفت دفعة واحدة ، ولاحظ ان الأوعية الدموية انقبضت فى المعدة واتسعت فى أطراف الجسم ، وزاد ضغط الدم زيادة كبيرة فى هذه الأطراف ، وفوق ذلك لوحظت تغيرات مختلفة فى الافرازات ؛ كزيادة العرق ونقص اللعاب وغير ذلك .

وقد دلت التجارب المختلفة على ان الحالات الانفعالية — التى منها الخوف والغضب — يزداد فيها (الادرنالين) وكمية السكر اللازم للاحتراق فى الدم . الى غير ذلك من التغيرات «الفسيولوجية» التى قد نحس بنتائج بعضها أحيانا ، ولا نحس بأغلبها .

نظرية « جيمس لانج » :

منذ أكثر من ستين عاما وضع كل من « جيمس» و« لانج »على انفراد النظرية المعروفة باسم نظرية « جيمس لانج » ولهذه النظرية صيغ متضاربة ناتجة عن عدم التمييز بين الحالة الانفعالية والتغيرات الجسمية .

تتلخص هذه النظرية فى أن الانفعال هو مجموعة الاحساسات المختلفة المتسببة عن التغيرات العضوية ، وتختلف الانفعالات بعضها عن بعض باختلاف هذه الاحساسات العضوية . وذهب «جيمس» الى أبعد من هذا ، فقال : ان المظاهر الجسمية والعضوية ليست نتيجة للانفعال ، وانما هى السبب فى ظهوره ؛ فنحن لا نبكى — فى نظره — لأننا نشعر بالحزن ، ولا نضرب لأننا نشعر بالغضب ، ولا ترتعد فرائصنا لأننا نشعر بالخوف . وانما نشعر بالحزن لأننا نبكى ، ونغضب لأننا نضرب ، ونخاف لأن فرائصنا ترتعد . وقال أيضا : انه اذا أمكن تجريد الفرد من جميع التغيرات الجسمية والعضوية فى موقف مافان الموقف يصبح موقفا ادراكيا خلوا من أى شعور أو انفعال .

وواضح — كما قلنا — ان «جيمس» لم يميز فى تعبيراته بين الحالة النزوعية — أى الاندفاع لعمل شىء — والتغيرات العضوية كجفاف

اللعاب ، وزيادة ضربات القلب ، وسرعة التنفس ، وزيادة « الادرنالين » والسكر فى الدم ، وافراز العرق .. الخ .

وزيادة على ذلك فقد أثبت « كانون » وغيره بالتجارب والملاحظات العدة فساد هذه النظرية ، وأصبحوا يدعمون الفكرة القائلة بأن الانفعال حالة شعورية صرفة تصحبها بعض التغيرات الفسيولوجية .

وفوق ما تقدم فالمنطق السليم يقول : ان الانسان يهرب من الخوف ، ويقتل من الغيظ ، ولا يقول : ان الانسان يغتاظ من القتل ويخاف من الهرب .

نظرية « مكدوجل » :

وقد وضع « مكدوجل » نظريته لأول مرة عام «١٩٠٨» فى كتابه علم النفس الاجتماعى . وهى شبيهة بنظرية كان « دارون » قد وضعها من قبله . وتتلخص فكرته فى أن كل التغيرات الجسمية والعضوية المصاحبة للانفعال لها غرض أساسى بيولوجى ، وهو خدمة الفعل الغريزى . وكل نوع من أنواع الحيوان تتكيف حركاته الجسمية بصورة خاصة بها فى أثناء الفعل الغريزى بحيث يتم هذا الفعل على أكمل وجه ممكن . وسمى «دارون» هذه الحركات بالأفعال المصاحبة المفيدة[1]

"Serviceable Associoted Actions."

أخذ «مكدوجل» ومن تبعه هذه الفكرة ، وبنوا عليها فى ضوء تجاربهم وملاحظاتهم نظريتهم فى الصلة بين الانفعال والتغيرات المصاحبة . فاذا ما أثير انفعال الخوف فان الغرض الحيوى المطلوب يتحقق بسرعة الخلاص من الموقف . وقد يتم هذا العمل عند الطيور بطيرانها ، وعند الغزلان بالجرى ، وعند الحيوانات المائية بالغوص فى الماء . ولكى يتم هذا نجد أن الأعضاء الداخلية تتكيف لتساعد على تحقيق هذه الغاية ، فيسرع القلب فى عمله ليوزع الدم فى شىء من السرعة على أجزاء الجسم ، وتسرع الرئتان فى عملهما لأخذ الهواء النقى وطرد غيره وبذلك تساعدان عملية الاحتراق

(1) Darwin: The Expression of the Emotions in man and animals.

الضرورية لاعطاء الجسم طاقته اللازمة ، ويتوزع الدم كذلك بحيث يترك أجزاء الجسم التى يمكن وقوف عملها فى هذا الوقت ، فيترك المعدة والأمعاء وسطح الجلد،ويتوزع فى المخ وفى العضلات الكبيرة التى تساعدنا على سرعة الهرب ، وتتسع حدقة العين حتى تستقبل أكبر قدر ممكن من الضوء لتستعين به على ادراك الأشياء وتمييز المواقف .

وهناك أيضا التغيرات الكيمائية التى أثبت وجودها « كانون » وغيره ، والتى ذكرنا بعضها سابقا ، وهى زيادة افراز « الادرنالين » والسكر ، فـ « الادرنالين » يساعد على شد العضلات واستمرار العمل ، والسكر يعطى الجسم حرارة فتقوم كل العضلات بعملها خير قيام . وللسكر و «الادرنالين» وظائف أخرى فى هذه المواقف . ومجموع التغيرات الحادثة ونتائجها يكون عادة المظهر الخارجى للانفعال ، ففى انفعال الخوف مثلا تتلخص أهم هذه المظاهر فيما يأتى :

اتساع العين ، واتساع الحدقة ، وثبوت العين ، وجفاف الريق ، ووقوف الهضم ، وصفرة اللون واسراع النبض ، واسراع التنفس فى شىء من العمق ، وخفة الحركة ، وغير ذلك .

وهذه التغيرات توجد عادة فى كل نشاط غريزى ، الا أن بعض المواقف تتطلب سرعة فى العمل والتنفيذ ونشاطا جسميا زائدا . ولهذا نجد أن التغيرات الجسمية تكون عنيفة فى غريزتى الهرب والمقاتلة . وأما الغرائز التى لا تتطلب لتحقيق أغراضها نشاطا جسميا كبيرا ولا سرعة فى التنفيذ فان انفعالاتها تكون أقل تعقيدا وأقل عنفا ؛ بل أقل وضوحا من الانفعالات المصاحبة للهرب والمقاتلة ، فحب الاستطلاع مثلا يتطلب الهدوء . وعدم التسرع ، ولا يتطلب قوة عضلية لتحقيق رغباته لذا كانت مظاهره الخارجية بسيطة هادئة لا وضوح للانفعال فيها ، وكذلك نجد حب التملك والنزعة الاجتماعية .

على أن البحوث ما زالت تجرى فى هذا الموضوع ، اذ أنه لوحظ أن بعض الحالات الانفعالية يصحبها تغيرات مخالفة لما يصحب بعض الحالات

الانفعالية الأخرى، وقد فسر هذا الاختلاف بأن الانسان يميل الى الاستمرار فى بعضها ؛ كما فى انفعالات السرور ؛ ويميل الى الكف عن بعضها الآخر ؛ كما فى انفعالات التألم والحزن . ففى الأول تجد زيادة فى النبض وانتشارا للدم على السطح وعلى أجزاء المخ مما يجعل المجموع العصبى المركزى أكثر قابلية للتأثر بالعوامل الجالبة للسرور . وهذا يفسر الانتشاء والتيقظ المصاحبين للمواقف المؤدية الى السرور . وأما فى الثانية فتجد هبوطا فى النبض وفى كمية الدم الذاهبة للأطراف والمخ مما يجعل المجموع العصبى المركزى أقل قابلية للتأثر بالعوامل غير الجالبة للسرور ؛ وهذا يفسر الانقباض والخمول والهبوط وقلة اليقظة فى المواقف الجالبة للتحسر والحزن وما الى ذلك[1] .

ويتمشى هذا التفسير مع النظرية التى نحن بصددها وهى أن التغيرات تحدث عادة لصالح الكائن الحى .

وقد اعترض على هذه النظرية بأن التغير الحادث لا يكون دائما لصالح الكائن الحى ؛ ففى حالة الخوف قد يفقد الشخص قدرته على الحركة فيثبت فى مكانه . ولكن يرد على هذا بأن التغيرات تتجه فى اتجاه صالح الكائن الحى ، وهى تعمل لصالحه على قدر الامكان . ومع ذلك فالثبوت التام الذى يحدث أحيانا فى الظروف الطبيعية من شأنه أن يفقد العدو مقدرته على تمييز الحركة وفى هذا نوع من الحماية . ولهذا كان التماوت والسكون التام وما يشبه ذلك يحدث فى الاتجاه الذى قد يفيد فى حماية صاحبه .

الانفعالات الأولية والثانوية والمشتقة :

سبق أن ذكرنا ثبتا بالغرائز المختلفة فى نظر « مكدوجل » ، وذكرنا مع كل منها انفعالها الخاص بها . بحسب رأيه . فالانفعالات التى قلنا بأنها العناصر الأساسية فى الغرائز يسميها « مكدوجل » بـ « الانفعالات الأولية »

(١) هذا بالطبع مع مراعاة أن هناك فروقا بين الافراد تجعلنا نضعهم فى طوائف ؛ فهناك الانبساطيون ، وهم أكثر قابلية للتأثر بالعوامل الجالبة للسرور ؛ والانقباضيون وهم على عكس ذلك .

فالانفعالات الأولية اذن هى : الخوف والغضب والاشمئزاز والحنو ... الخ ، ولكل من هذه الانفعالات مظاهر جسمية وخارجية خاصة بها .

فكلنا يعرف من حركات شخص ما والتغير الحادث فى ملامح وجهه خوفه أو غضبه أو غير ذلك . وتميز هذه المظاهر الخارجية للانفعالات المختلفة دعا الفنانين الى اخراجها فى صورهم وتماثيلهم وتمثيلهم . وادراك هذه المظاهر الخارجية يمكننا أيضا من معرفة الدوافع النفسية للاشخاص الذين نتعامل معهم . وسنعلم أيضا أن ادراك المظاهر الخارجية للانفعال يستثير عادة عند المدرس نفس الحالة الانفعالية ، وأن انفعال الغضب مثلا يثار فى شخص ما بطريقتين ؛ احداهما : الوقوف فى سبيل تحقيق بعض رغباته أو أغراضه الغريزية — كما يسميها « مكدوجل » — وثانيتهما : ادراك المظاهر الخارجية لانفعال الغضب[1] .

وتدلنا الانفعالات عادة على الحالات النفسية عندنا وعند غيرنا ، وعلى ما يجب علينا عمله ، فانفعال الغضب مثلا يدلنى على أننى غاضب . واذا شعرت به فقد أجد أنه من المستحسن أن اضبط سلوكى خوفا من الشطط . وكذلك ادراك المظاهر الخارجية للحالات الانفعالية عند شخص ما تجعلنا نستعد لمقابلة سلوكه بالشكل المناسب ، فاذا لاحظت على شخص ما علامات الغضب فقد اتجنبه ، أو استعد لمقاومته ، أو أبدأ بمهاجمته ، او غير ذلك .

فالانفعالات اذن — وخصوصا الأولية منها — لها وظيفة ادراكية . فهى توقفنا — كما قلنا — على الحالات النفسية عندنا وعند غيرنا ، وتمكننا من ضبط سلوكنا وتوجيهه .

ولكننا نعلم أن بعض المواقف يستثير نزعتين مختلفتين فى وقت واحد ، وكثيرا ما يحدث أن تتذبذب بين حالتى الخوف وحب الاستطلاع أمام شىء غريب ، واليك مثالا لحادثة وقعت لى بالفعل : استيقظت مرة على ملمس شىء غريب عند قدمى فى أثناء الليل ، وكان الظلام حالكا ، فأحسست اذ ذاك بخوف شديد ، ولكنى أبعدت رجلى وقمت ببطء أتلمس

(١) سندرس هذا بالتفصيل فى فصل المشاركة الوجدانية .

هذا الشيء الذى اتضح فيما بعد أنه ذيل قطة كانت نائمة فى الفراش الذى أقام فيه . ومثار الخوف أننى ظننت الذيل ثعبانا عند الاحساس به ، وعند تمام المعرفة زال الانفعالان معا . وحل محلهما انفعال السرور والتسلية والضحك . فالحالة الانفعالية هنا كانت مزيجا من انفعالين أوليين . وقد يحدث أن يكون الانفعالان اللذان يثاران فى وقت واحد متضادين لدرجة تجعل امتزاجهما مستحيلا ، كالانفعال الذى يصحب البحث عن الطعام وانفعال التقزز ، وتكون نتيجة هذا التنافر أن يتغلب أحدهما على الآخر فيظهر ، وأما الآخر فانه يختفى — ولو ظاهريا — . فاذا كان لدى المرء احساس بالقىء (تقزز ظاهر) فانه لا يمكنه فى الوقت نفسه أن يشعر برغبة فى تناول الطعام .

والذى يهمنا الآن هو الحالة التى فيها مزيج من انفعالين أوليين أو أكثر، ويسمى الانفعال الناتج عندئذ بالانفعال المزجى أو الانفعال الثانوى أو الانفعال المركب .

ومن أمثلة الانفعالات الثانوية : الاعجاب الذى هو مزيج من التعجب المصاحب للاستطلاع والذلة المصاحبة للخنوع . ونلاحظ أن قادة الفكر أو الزعماء يثيرون اعجابنا عادة لأن بهم ناحية غامضة تستثير التعجب والاستطلاع وناحية أخرى عظيمة تستثير فينا الخضوع والخنوع . وهكذا يمكننا أن نحلل اعجابنا بالمخترعات والمخترعين وأعاظم الرجال وماالى ذلك.

ولكن اذا اختلط الخوف بهذا الاعجاب ظهر لنا انفعال آخر وهو الرهبة . واذا اختلطت الرهبة بالعرفان بالجميل ظهر انفعال التقديس . ويسمى هذا الانفعال بالانفعال الدينى الذى يدخل تحته انفعالات التعجب والخنوع والخوف والعرفان بالجميل . وهذا الأخير بدوره انفعال ثانوى مركب .

ومن هذا قد ندرك السبب فى عبادة القدماء للطبيعة وظواهرها ، فعبادة المصريين للنيل ربما كان سببها اعجابهم بفيضانه وانتظامه ، وما يظهر فيه من أبدية واستمرار ، وشعورهم بقوته الهائلة ، وقدرته على البطش ، ومع ذلك كله فانهم كانوا يشعرون بفضله فى قدرته على افادتهم واستمرار حياتهم .

ولكن بمجرد أن أدرك الناس اسباب الفيضان ومصادره (لا نقصد أنهم كشفوا منابع النيل) زال انفعال التعجب وزالت معه العبادة .

وقد يمتزج التقزز بالغضب فينشأ الاحتقار .

أما انفعال الغيرة فهو مزيج من الغضب ، وحب التملك ، والشعور بالنقص . ونظرا لتعدد انفعالات الغيرة ولأنه يكبت عادة بسبب ما به من شعور بالنقص نجد صعوبة فى كشفه . فصاحب الغيرة لا يعترف أمام غيره ولا أمام نفسه بأنه يشعر بها . ومظاهر الغيرة تختلف من غضب الى ائتلاف الى مخاصمة الى شعور بالذلة الى انقباض الى غير ذلك من أنماط السلوك المتعددة .

هناك كذلك انفعال العتب فاذا اكتشفت أن كتابا ثمينا من كتبك قد أصابه التلف فقد تغضب لذلك . ولكن اذا علمت أن الذى اتلفه طفلك الصغير تجد الغضب يتحول الى انفعال آخر — هو مزيج من الغضب والحنو — يمكن تسميته العتب .

ويلاحظ أن بعض هذه الانفعالات الثانوية يظهر فى دائرة عاطفة معينة ، فالعتب لا يظهر الا فى حالة توجد معها عاطفة « الحب » أما الاحتقار فيوجد مع عاطفة الكراهية . وسنفرد فصلا خاصا نوضح فيه معنى العاطفة،والفرق بينها وبين الانفعال .

وعلينا أن نذكر أن الانفعال الثانوى ليس مجموعا حسابيا لانفعالين أو أكثر ، وانما هو حالة مركبة لها خصائصها ، فالاحتقار انفعال مركب يتميز عن غيره ، ويظهر دفعة واحدة فى الموقف المثير له ، لا تجد أن الغضب يظهر ، ثم يظهر التقزز ، ثم يجمعان أحدهما على الآخر ليتكون الانفعال الجديد . وانما يتكون الانفعال فى موقف مركب لو حلل الى عناصره لأدى كل عنصر الى انفعاله الأولى فالعلاقة بين الانفعال المركب والانفعالات الأولية كالعلاقة بين المركب الكيماوى وعناصره الأولية .

وهذا تطبيق آخر لمبدأ الكلية ، وهو أحد المبادىء الثلاثة التى شرحناها فى الباب الأول .

وهناك — بحسب رأى « مكدوجل » — نوع ثالث من الانفعالات يسميه الانفعال المشتق وهو لا يكون فى العادة مرتبطا بأىفعل غريزى ؛

ولكنه يظهر فى أثناء السلوك الغريزى أيا كان . فاذا أخذنا الخوف نجد أنه انفعال لغريزة الهرب ؛ ولكن اذا استثيرت الغريزة فان الانسان فى أثناء شعوره بالخوف قد يشعر باليأس من الهرب أو الأمل فى الهرب . ويسمى كل من اليأس والأمل انفعالا مشتقا . ونفس هذا يحدث مع بقية الغرائز . ومن الانفعالات المشتقة السرور والألم واليأس وما الى ذلك من الانفعالات التى لا ترتبط دائما بفعل غريزى خاص .

أساس آخر لتقسيم الانفعالات :

وهناك تقسيم آخر يشيع بين علماء النفس الألمان[1] ويقوم هذا التقسيم على نوع الناحية الادراكية التى يمكن أن تكون أساسا للناحية الانفعالية . فالانفعالات الأولية أو الدنيا هى التى ترتبط فى نظرهم « باحساسات » بسيطة . فالألم الناشىء من شكة الدبوس أو اللذة الناشئة من تناول شراب حلو يسمى انفعالا أوليا . وأما اذا كان الانفعال ناشئا من فهم معنى حقيقة معينة فانه يعتبر من الانفعالات العليا . فاذا سمعت مدحا يخصك فالشعور بالزهو لا ينشأ من الاستماع ؛ وانما ينشأ من فهم معنى ما يسمع . وبعبارة أخرى : تكون الانفعالات الأولية حسية الأصل . وأما الانفعالات العليا فانها تكون معنوية الأصل ولا يعنينا التقسيم على هذا الأساس الا من حيث كونه عرضا لوجهة نظر مخالفة لوجهة النظر المتبعة فى هذا الكتاب . وهناك تقسيمات أخرى تقوم على أسس أخرى ، وليس هناك ما يدعو للتعرض لها الآن .

طرق دراسة الانفعالات :

يمكن تلخيص الطرق المتبعة فى هذا فى قسمين[2]: الطرق التعبيرية «Methods of Expression » أو الطرق التأثرية « Mehtods of Impression » . وتقوم

(1) Lindsworsky : Experimental Psychology p. 179

(2) Drever and Collins : Experimental Psychology.

الطرق التعبيرية على قياس التغيرات الحادثة فى سرعة النبض ، أو فى ضغط الدم ، أو فى طريقة التنفس ، أو فى تغيير قدرة الجسم على مقاومة التيارات الكهربائية الضعيفة أو غير ذلك . ولكل من هذه أجهزة خاصة غاية فى الدقة تقوم بقياس هذه التغيرات وتسجيلها . ومن هذه : « Sphygmograph » للنبض ، و«Plythysmograph» لامتلاء الأوعية الدموية ، و «Pneumograph» للتنفس ،و «Cardiograph » للقلب ،و « Automatograph » لحركات اليد غير الارادية ، و «Psychogalvanometer» لتغير مقاومة الجسم للتيارات الكهربائية .

ويعتمد فى الطرق التعبيرية على معرفة التغيرات الجسمية والفسيولوجية والسلوكيون يعتمدون عليها دون غيرها ، ويكتفون بالربط بينها وبين المؤثرات .

أما الطرق التأثيرية فتقوم على تأثر الشخص وشعوره وتقديره . فقد تعرض على الشخص صورتين ليختار احداهما ، وقد تعرض عليه عددا من الزجاجات بها مواد ذات روائح مختلفة وعليه أن يختار أحسنها . ويعطى الشخص فى العادة تأملاته الباطنية فى هذه الحالة . ويحسن الجمع عادة بين الطرق التعبيرية والتأثرية مع العناية باجراء التأملات الباطنية .

ويعتمد على الطريقة التأثرية فىمعرفة الميول الشائعة بين الناس . فاذا عرضنا ثلاث قصص (ا ، ب ، ج) على تلميذ ليختار أحسنها فيحسن أن أجعله يوازن بين (ا ، ب) ثم يوازن بين (ب ، ج).وأرتب (ا ، ب، ج) ترتيبا تنازليا بحسب تأثر هذا التلميذ وأكرر هذا على عدد كبير من التلاميذ حتى أخرج بفكرة عن اتجاه تذوق القصة فى حدود هذه التجربة .

ويمكن اتباع هذه الطرق فى موضوعات أكثر عددا وأكبر تعقيدا ، ويمكن الخروج منها بأنماط للتأثر الانفعالى والتذوق وما الى ذلك .

صفات الانفعال :

قام كثير من علماء النفس بمحاولة تحديد النواحى المختلفة التى يوصف بها الانفعال . فاكتفى بعضهم بأن يصف الانفعال على مقياس السرور والألم وما بينهما من درجات و لكن « فنت Wundt» رأى أن هناك ثلاث نواحى:

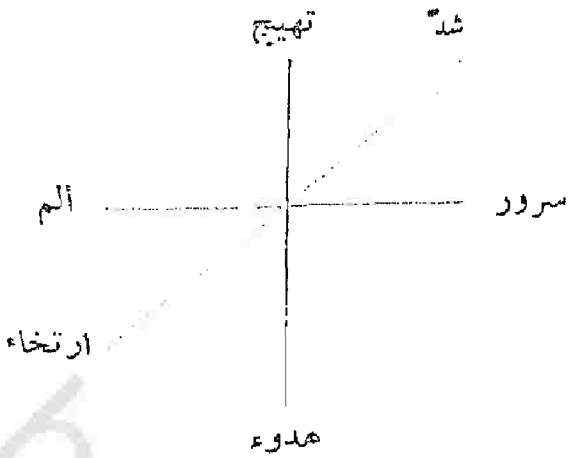

(١) السرور والألم .

(٢) التهيج والهدوء .

(٣) الشد والارتخاء .

فحالة غضب قد تكون على درجة عالية من الايلام والهدوء والشد وحالة سرور مصحوب بضحك قد تكون على درجة عالية من السرور والتهيج والارتخاء .

ويلاحظ أنه اذا اعتبرنا السرور موجبا والألم سالبا فان هناك درجات عديدة تقع بينهما ، ولذا سمى « فنت » فكرته بنظرية الأبعاد الثلاثة للانفعال .

وبالرغم مما وجه اليها من انتقادات نظرية عدة فانها تفيد كثيرا من الناحية العملية .

الانفعال والمزاج :

من الأمور المعروفة أن التأثر الانفعالى يتوقف على أمرين ؛ أحدهما : الموقف ، والثانى : الشخص وحالته الجسمية والعقلية . فالاستعداد للتأثر الانفعالى يختلف من فرد الى آخر ، ويختلف فى الفرد الواحد من وقت الى آخر ، وذلك بحسب عوامل بعضها فطرى دائم وبعضها مؤقت .

فالانسان فى حالة التعب ، أو الراحة ، أو المرض،أو الصحة،أو المرح ، أو الاكتئاب تجده أكثر استعدادا للتأثر بطريقة معينة عنه بطريقة أخرى .

ويتوقف الاستعداد للتأثر الانفعالى الى حد كبير على الحالة الغدية والعصبية للشخص ، وعلى ما يجرى فى الجسم من عمليات الهدم والبناء ، والعمليات الكيميائية المختلفة ؛ وهذا الجزء من الاستعداد يسمى مزاجا «Temperament»

ولكننا عندما نصف الفرد نقول : انه سريع الانفعال أو بطىء الانفعال، مثابر أو غير مثابر . أى أننا نصف مظاهر حياته الانفعالية وطريق سيرها وهذا ما نسميه بالطبع « Temper » .

كذلك يحدث أن يبدأ الواحد يومه منقبضا ، ويستمر انقباضه هذا مدة طويلة . كذلك نراه مرحا ، أو غاضبا ، أو مشمئزا ، ثم نراه يستمر هكذا مدة طويلة حتى بعد زوال الأسباب الظاهرية . واستمرار حالة وجدانية بعد زوال أسبابها الظاهرة نسميه حالة مزاجية

ولكننا اذا أردنا أن نصف الشخص وصفا دقيقا تحسن ملاحظته لمدة طويلة فى ظروف مختلفة وعند قيامه بألوان متعددة من النشاط ، ويحسن بالاضافة الى درس مزاجه وطبعه وحالاته المزاجية أن نسترشد بثبت الغرائز والانفعالات فنقدره فى حالة الاستعداد للغضب ونعطيه درجة قد تتراوح من « + ٢ الى — ٢ » ، ويكون معنى « + ٢ » أنه غضوب جدا ، ومعنى « + ١ » أنه غضوب ، ومعنى صفر اعتيادى ، ومعنى « — ١ » أنه مسالم ، ومعنى « — ٢ » أنه مسالم جدا وهكذا فى بقية الصفات .

وهذه طريقة مبدئية لدراسة الأشخاص من الناحية الانفعالية ، وعلى ما بها من بساطة فقد ثبتت فائدتها ، خصوصا فى حالة تعدد الملاحظين ، وتنوع الظروف .

تطبيقات اجتماعية وتربوية :

نسلم أول الأمر أن الانفعالات من أهم دوافع الانسان للعمل ، ونستنتج من هذا أهميتها للفرد والمجتمع ، فاذا أردنا من الناس أن يقوموا بعمل ما فان أسهل الطرق لذلك هى استثارة انفعالاتهم أو ما يسمونه عواطفهم ومشاعرهم .

وأسهل الطرق لاستثارة الانفعالات هى استثارتها عند الجماعة ، أى أن استثارة الجماعة أسهل من استثارة الفرد ، وهذا راجع الى تضخم التأثر بفعل المشاركة الوجدانية . ولذا تهتم الحكومات عادة بمنع التجمهر والاجتماعات فى أثناء الأزمات السياسية ، ويهتم الذين يريدون تهييج الرأى العام بعقد الاجتماعات ، ثم استثارة الشعور فيهم ، وهذه طريقة قديمة وباقية . فهى التى اتبعها « شيشرون » قديما ، وقادة كل من الثورتين الفرنسية والمصرية وغيرهم حديثا .

وقد درس الناس كثيرا من العوامل التى تثير الانفعالات ، فمن هذه الموسيقى ، والشعر ، والفن التصويرى ، والتمثيلى ، وغير ذلك . فلا يجوز اذن أن نهمل أثر الفنون المختلفة فى تنشيط الأمم والجماعات ودفعها نحو العمل . وقد كان للفنون بمختلف أنواعها أكبر الأثر فى انهاض الأمم فى جميع العصور التاريخية المعروفة .

ولعلنا نرى مما تقدم امكان استثارة التلاميذ نحو الأعمال الخيرية والوطنية على أن تكون الاستثارة متبوعة دائما بالتنفيذ ، وعلى هذا الأساس تنبنى التربية الخلقية . ونرى أيضا أهمية التربية الفنية كتذوق الجمال والأدب والشعر والموسيقى والتمثيل ، ولكن التذوق لا يكفينا ، فيجب أن ندرب التلاميذ على الطرق التعبيرية المختلفة ، سواء كان التعبير فى صورة انتاج أدبى أو تصويرى أو تمثيلى أو غير ذلك ، ونلاحظ عادة فى التلاميذ حيوية وتحمسا عند اهتمامنا بالناحية الوجدانية أكثر مما نلاحظ فيهم عند اهتمامنا بالناحية الفكرية النظرية المجردة .

وللانفعالات أثر فى العمليات العقلية ، فالحالات التى يصحبها انفعال شديد يختل فيها التفكير المنتظم ، ولهذا كان من العبث مناقشة الغاضب مناقشة منطقية ، وهذا لأن التفكير يرمى الى ربط عدة أفكار بعضها ببعض ، بينما الانفعال يثبت فى ذهن المرء فكرة واحدة ، فالغاضب أو الحزين لا يسيطر على عقله الا فكرة واحدة ، وهى التى أثارت غضبه أو حزنه . وأما فى حالات الانفعال المعتدلة فنجد أن تفكير المرء يصطبغ عادة بصبغة وجدانية خاصة ، وينتبه المرء لنوع من الأفكار دون الأفكار الأخرى ، فاذا شعر المرء بالانقباض فانه يرى أنه سيىء الحظ ، ولا يرى فيما يرى أو يفكر الا عناصر الانقباض ، ولا يقدر النكتة أو المزاح ، أما عند شعوره بالمرح ، فانه يرى السرور فى كل شيء ، ويضحك للنكتة ويقدرها . ولنفس السبب نجد المغرمين يرون الغرام فى الزهر ، والطير ، والماء ، والهواء ، والموسيقى ، والشعر ، بل فى كل ما يرون ويسمعون ويحسون . ونرى بغاية الوضوح انسجام الأفكار ، واصطباغها بصبغة وجدانية واحدة فى الشعر والموسيقى .

وللانفعالات آثار متناقضة فى التذكر ؛ فبعض الحوادث المصحوبة بانفعالات شديدة تترك آثارا ثابتة يصبح من الصعب نسيانها ، وفى الوقت نفسه نعلم أن بعض الحوادث المصحوبة بانفعالات شديدة الايلام ننساها نسيانا تاما . هذه حالات شاذة ، ولكن الحالات الانفعالية المؤلمة تقلل الاستعداد للتذكر ؛ فالطفل الذى يتعلم تحت تأثير العصا يكون تقدمه أبطأ من غيره الذى يتعلم بالطرق الحديثة التى تعتمد على الحرية ، ولا تعتمد على الارهاب والعقاب والتخويف .

ولبيان أثر انفعال الخوف فى التلاميذ أجرى أحد العلماء تجربة قرأ فيها بعض الكلمات على تلاميذه ، ثم طلب منهم استرجاعها ، وأوجد متوسط ما تذكره تلاميذ الفصل ، ثم قرأ عليهم مجموعة أخرى مساوية للسابقة تماما فى العدد والصعوبة ، ولما انتهى من قراءتها أطلق « مسدسا » فى الفضاء دون أن يتوقع ذلك أحد ، ثم طلب من التلاميذ استرجاع ما قرأه عليهم، فوجد أن أكثرهم قد نسوا جميع الكلمات ، وان عددا قليلا منهم تذكر كلمة أو كلمتين .

واستنتج من ذلك أن الخوف يسبب النسيان .

وترمى التربية الحديثة أيضا الى اشباع النزعات الغريزية المختلفة ، أى أنها ترمى الى استثارة هذه الانفعالات ، وجعلها الدوافع الأساسية للعمل ؛ فالطفل الذى يعمل بشغف لاشباع حب الاستطلاع أو الحل والتركيب يتعلم أكثر وأسرع من الذى يتعلم ما يريد المدرس أن يعلمه اياه.

وهذا هو الأساس الذى تسير عليه مدارس النشاط الحديثة التى تبنى خطتها على نشاط التلميذ أكثر من نشاط المدرس ، ويستلزم نشاط التلميذ ليكون منتجا استثارة الانفعالات واشباع الميول بالصورة التى سبق أن بيناها .

المراجع

Cannon	: Bodily Changes in Hunger, Fear and Pian.
Cannon	: The Wisdom of the Body.
Darwin	: The Expression of Emotions in Man and Animals.
Dewey	: Humen Nature and Conduct.
Drever & Collins	: Experimental Psychology.
Lindsworsky	: Experimental Psychology.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل التاسع

الاستهواء

تحدثنا فى الفصلين السادس والسابع عن التشكيلات السلوكية الغريزية أو الفطرية ، وتحدثنا فى الفصل الثامن عما يصاحبها من انفعال ، وتبين لنا فى كل هذا أنه من الممكن أن نفترض أن للانسان استعدادات فطرية تهيئه فى بعض المواقف لنشاط له وظائف بيولوجية هامة بالنسبة للكائن الحي .

وهناك مجموعة من الاستعدادات — سواء اعتبرناها فطرية أو غير فطرية — تلعب دورا هاما فى الحياة الجمعية . وهذه الاستعدادات هى القابلية للايحاء أو الاستهواء ، والقابلية للمشاركة الوجدانية ، والقابلية للتقليد ، والميل الى اللعب والتكرار .

والنزعات الثلاث الأولى ترتبط بنواحى الشعور الثلاث : الادراك والوجدان والنزوع . فانتقال الأفكار (الادراكات) من شخص الى آخر تحت شروط معينة يدخل فى باب الاستهواء . وانتقال الوجدانات والانفعالات من فرد الى آخر فى ظروف معينة يدخل فى باب المشاركة الوجدانية ، أما انتقال ألوان السلوك أو المظاهر التنفيذية فانه يدخل فى باب التقليد . وبذلك نرى الكائن الحى معدا بما يساعده على التأثر بما حوله من مختلف المظاهر العقلية الشعورية . وبذلك أيضا نجد الانسان بنوع خاص معدا اعدادا طبيعيا بما يعاونه على الارتباط الفكرى والوجدانى والسلوكى بمن حوله من بنى جنسه . فيكون لدى المجتمع الأدوات الطبيعية التى تهيىء له تماسك أفراده بعضهم ببعض .

ويتطلب انتقال الفكرة أو الوجدان أو السلوك وجود طرفين على الأقل.

ويسمى الطرف الذى تنتقل منه الحالة النفسية « المؤثر » . أما الطرف الآخر الذى تنتقل اليه هذه الحالة فانه يدعى « المتأثر » .

ويتبين من كل هذا السر فى أن بعض علماء النفس كانوا يميلون الى تسمية هذه النزعات الثلاث بالغرائز الاجتماعية . أما النزعة الرابعة وهى اللعب فيمكن أن تكون اجتماعية ، ويمكن أن تكون فردية .

وسنعالج هذه الظواهر النفسية المختلفة بغض النظر عما يراه بعض علماء النفس من كونها فطرية ، وما يراه البعض الآخر من كونها غير فطرية ، ولو أن هناك أدلة لاثبات فطريتها ، ونحن فى صف هذه الأدلة .

القابلية للاستهواء :

من الأمور المشاهدة أن يتحدث المرء الى صديق عن برودة الجو فيحس السامع على أثر هذا الحديث ببرودة فعلية ، ويحدث مثل هذا فى كل يوم عندما يتأثر الناس بعضهم بأفكار بعض . فانك لا تكاد تقرأ الخبر فى صحيفة سيارة حتى تصدقه وتتحدث عنه باقتناع . كذلك يذهب الناس لسماع خطيب أو محاضر له صيته فى محيط تخصصه ، فيخرجون وقد اعتنقوا أفكارا جديدة دون أن يسمحوا لأنفسهم بالتشكك فيها أو مراجعتها أو استيفاء الأدلة المؤدية الى الاقتناع بها . وعلى هذه الظاهرة يعتمد الساسة فى توجيه الجماهير وجهات معينة . فهى ضرورية لدفع الجيوش للحرب ، وضرورية للدعاية ولاثارة الرعب بما يسمى حرب الأعصاب .

واستعداد الشخص لتقبل فكرة مع عدم وجود الأسباب المنطقية الكافية لتقبلها هو ما نسميه « القابلية للاستهواء » . والذى نعلمه أن الانسان يميل عادة الى مناقشة ما يكتشفه عقله من حقائق ، ويميل الى التحقيق فيما يستطلعه من أدلة . وهذا الاستعداد للتأمل والنقد والمناقشة والتحقيق يعمل فى اتجاه مضاد للاستعداد للاستهواء . فكأن المواقف التى تبرز فيها القابلية للاستهواء . تتوقف فيها القوى النقدية عن العمل .

شروط الاستهواء :

وبدراسة المواقف التى يتم فيها الاستهواء نرى أنه يكون هناك مؤثر

ومتأثر ، وتكون الصلة القائمة بينهما بحيث تضعف من أثر القوى النقدية فى المتأثر . فعلينا أن ندرس فى المواقف الاستهوائية ثلاث مجموعات من العوامل ؛ أحدها يتصل بالمؤثر ، والآخر يتصل بالمتأثر ، والثالث يتصل بالعلاقات الواقعة بينهما ؛ على أن حالة كل من المؤثر والمتأثر ، وحالة ما بينهما من علاقة أمور متغيرة نسبية . فقد أكون قابلا للتأثر مع شخص دون شخص آخر . وقادرا على التأثير فى شخص دون شخص آخر . وقد أكون قابلا للتأثر مع شخص فى موقف دون موقف آخر . ولهذا يجب أن نتأمل كل موقف على حدة . وبلغة «الجشتالت» نريد أن ندرس المجالات الداخلية والخارجية والمؤهلة للاستهواء ، وبعبارة أخرى : ندرس مجال المؤثر ومجال المتأثر وما بينهما من مجال .

وبين المتأثر والمؤثر فى أثناء انتقال الفكرة قدر مشترك يعاون على هذا الانتقال . فالفكرة تنتقل بين أفراد من جنس واحد بسهولة أكبر مما تنتقل بها بين الأفراد من أجناس مختلفة ، وكذلك بين أفراد الأمة الواحدة أو الدين الواحد أو الحزب السياسى الواحد أو بين الأقارب أو بين الأصدقاء . هذا القدر المشترك يكون فى العادة وجدانيا من أساسه . وانتقال الفكرة بين أفراد المجموعة الواحدة يزيد من الصلة بينهم ؛ ويجعلهم أقدر على فهم بعضهم البعض الآخر . فكأن القابلية للاستهواء مبنية فى هذه الحالات على ما هو موجود من الروابط الاجتماعية ، ويترتب عليها فى نفس الوقت تنمية هذه الروابط . وتؤخذ هذه الحالات أدلة مضادة للفكرة القائلة بأن القابلية للاستهواء استعداد فطرى . ولكن هناك فرقا بين الاستعداد العام والحالات الخاصة .

ويمكننا أن ننتقل الى شىء من التفصيل بدراسة المتأثر وحده ، ثم المؤثر وحده ، على أن نذكر دائما أن الفصل بينهما ضرورة علمية وليست حقيقة واقعية ، اذ لا يمكن أن نفكر فى أى منهما دون أن نفكر فى الآخر وفيما بينهما من علاقة . فاذا أخذنا المتأثر نجده أكثر قابلية للاستهواء اذا كان فى حالة جسمانية تضعف معها قدرته على التحقيق والنقد . فالمريض يتأثر بما يسمعه عن نفسه ، وعن مرضه ؛ سواء أكان ما يسمعه صحيحا أو مبالغا فيه .

كذلك نجد الفرد فى حالات التعب والانهاك والتخدير والخمول أكثر استعدادا لتقبل ما يشاع حوله من أفكار .

واذا كان المتأثر جاهلا بموضوع معين فانه يميل الى أن يتقبل بسهولة ما ينقل اليه عن هذا الموضوع . ومن أمثلة ذلك أن كان أحد الظرفاء يتناول مع صديق له طعام « المكرونة » وهو يعلم أن صديقه بحكم نشأته لا يعرف شيئا عن أصل هذا الطعام ، فسأل الظريف صديقه عن « شجرة المكرونة » كيف يكون شكلها،فردعليه الصديق قائلا:انه يلزم أن تكون هذه الشجرة ضخمة تتدلى منها « المكرونة » فى صورة أفرع طويلة . ولم يكن الصديق مازحا فى رده،وانما كان جادا يعتقد أن صديقه لم يخدعه بسؤاله عن حقيقتها . وتحليل هذا أن المؤثر يعلم بجهل صاحبه ، والمتأثر واثق من علم صاحبه ، وقد وضع المؤثر سؤاله بحيث لا يحقق المتأثر فيما اذا كانت « المكرونة » تزرع أو لا تزرع ، وانما وضعه بحيث يسلم المسئول تسليما كاملا بأنها تزرع ، وليس عليه فى هذا الموقف الا أن يتصور شكلها النباتى . ومن أمثلة ذلك أيضا أن راجت شائعة فى انجلترا عام ١٩٢٨ بأن حيوانا كبيرا جدا يظهر بعد الغروب من احدى بحيرات « اسكتلندا » أطلق عليه اسم Lochnees Monster ، وكتبت عنه الصحف ذاكرة أن بعض السكان قد رأوه وفزعوا منه . وانقسم الناس حيال هذه الشائعة الى قسمين ، فالمتعلمون منهم اعتبروها نوعا من التوهم ، أما الجاهلون فانهم صدقوها وعملوا على نشرها . من كل هذا يتبين أن جهل المتأثر من العوامل الأساسية التى تيسر قبول الأفكار .

وكل حالة نجد فيها أن المتأثر أضعف بالفعل من المؤثر — أو يشعر أنه أضعف منه — نجد فيها سهولة تقبله للأفكار التى تصدر اليه منه . ومن أمثلة ذلك قصر الذكاء عند المتأثر اذا قيس بذكاء المؤثر . ولهذا كان الأغبياء وضعاف العقول فى جملتهم أكثر قابلية للاستهواء من غيرهم . وبهذا القياس نفسه نجد الأطفال أكثر تقبلا لأفكار الكبار ، والنساء أكثر تقبلا لأفكار الرجال ، والجماهير أكثر تقبلا لأفكار الزعماء .

ويلاحظ كذلك أن تعلق المرء بفكرة سابقة ، أو بحالة وجدانية معينة ، يجعله أميل الى اتجاه من ناحية دون الأخرى . فالذى يعتنق مذهبا دينيا أو مبدأ سياسيا أو اتجاها عنصريا تجده أميل الى تقبل الأفكار المشابهة لما عنده من اتجاهات . لذلك الخائف . فانه يكون مستعدا لتقبل الأفكار التى تشاع حوله اذا كانت من النوع الذى يزيد من الشعور بالخوف . فقد لوحظ فى الحرب العالمية الثانية أنه يسهل نشر الدعايات الكاذبة بشأن هجمات الألمان ومبلغ احتمال فتكهم بمن يقاومونهم . وبلغ الأمر بالناس أنهم كانوا يسعون وراء هذه الأخبار ، ويتبعون فى سعيهم أساليب كانت تحرمها السلطات . كذلك الذى ينتمى الى دين معين تطربه الألحان وتسره الأجواء والطقوس والتقاليد المرتبطة بهذا الدين . بينما اذا ذهب نفس الشخص لزيارة معبد تقام فيه طقوس دين آخر غير الذى يعتنقه . فان ما يسمعه فى هذا المعبد من ألحان وتعاليم ، وما يراه فيه من تقاليد وصلوات قلما يبعث فى نفسه الطرب والسرور بالقدر الذى تبعثه فيها طقوس دينه وتقاليده . على أن الحالة الوجدانية الناشئة فى هذا المثال مبعثها التجاوب الكائن بين ما لدى الشخص من عقائد وأفكار ، وما يشاع حوله منها .

نرى من كل ما تقدم أن استعداد المرء لتقبل أفكار غيره تقبلا استهوائيا يمكن أن يتأثر بعوامل مختلفة ، منها ما بين المؤثر والمتأثر من تشابه أو من علاقة عاطفية ، ومنها الحالة الصحية والجسمية المؤقتة والدائمة ، ومنها المستوى العقلى للمتأثر ، كمبلغ علمه بالموضوع ، وكمقدار ذكائه ، ومنها كذلك ما عليه المتأثر من حالة وجدانية ، وما عنده من عقائد وأفكار تجرفه فى اتجاه دون آخر . على أننا قد نجد الشخص ذكيا عالما ومع ذلك فاننا نجده مستعدا لتصديق ما يوحى اليه به من أفكار .

فاذا انتقلنا الى المؤثر لبحث العوامل التى تجعله أكثر قدرة على التأثير وجدنا فيه صفات تخالف ما تقدم ذكره عن المتأثر . فنجد مثلا أن العلم بالموضوع ، وقوة الشخصية ، وارتفاع مستوى الذكاء وما الى ذلك ، كلها تعاون صاحبها على نقل فكرته الى غيره .

يضاف الى هذا أن المؤثر اذا كان له صيت فى ناحية ما ، فان هذا الصيت يسهل له نقل أفكاره الى غيره ؛ فصيت العلماء يجعل كلامهم أكثر تأثيرا فى سامعيهم حتى ولو لم يدلوا بالأدلة الكافية على صحة ما يقولون . وهـذا بعينه ينطبق على تأثير الزعماء الدينيين والسياسيين . وهذا يفسر ما نراه من سهولة تصديق الناس لما تنشره المطبعة ، وكذلك لما يصدر عن الحكومات هذا الا اذا كان هنـاك عداء من القـارىء لمصدر الفكرة مـؤلفا كان أو حكومة .

ومن عوامل التأثير التكرار ؛ فالاعلان الذى يتكرر فى أوقات مختلفة غير متباعدة نجده يترك أثرا قويا فى نفوس القراء . ويلاحظ هذا فى ميادين التجارة والأعمال ، وفى الدعاية للكتب و « الأفلام السينمائية » . ونرى أن مجرد كثرة انتاج المؤلف أو تكرار ظهور الممثل فى أفلام متعددة قد يكفى لجعله أقرب الى نفوس الناس من غيره . وقد استغلت الدول المتحاربة فكرة الاعلان المتكرر عن طريق الاذاعة والصحافة والنشرات لتقوية الروح المعنوية فى جانبهم وتحطيمها فى الجوانب الأخرى . وقـد أوجـد الاعتماد المنظم على هذا الأسلوب مصطلحا جديدا يعرف بحرب الأعصاب .

وهناك صلة بين التكرار والصيت ، فتكرار فكرة معينة بصورة منوعة خاصة يخلق لها فى نفوس الناس صيتا يسهل قبولها . ويعتمد الناس فى تمجيد اسم شخص معين ، أو تشويه اسم شخص آخر أو فى اعلاء قيمة سلعة معينة ، على الاكثار من التحدث أو الكتابة فى نواحى الكمال أو النقص مما يؤدى الى خلق الصيت فى الاتجاه المطلوب .

وهناك عامل آخر يرتبط بالموقف ارتباطا عاما ، وهو وجود الفرد ضمن جماعة ؛ وذلك من شأنه عادة أن يضعف القوى النقدية فى الفرد . وهذا يحدث بصورة أوضح اذا كانت الجماعة كبيرة العدد ؛ فكبر العدد يوهم — بطريقة لاشعورية — كل فرد على حـدة باقناع البقية بما يجرى ، أو بما يقال . ولكبر العدد أثر آخر . وهو أن كل فرد يخشى نقد الباقين اذا اعترض منفردا . ويلاحظ أن احتمال ظهور تصدى الجماعة للفرد المعارض

يزيد بزيادة عدد أفراد الجماعة . وهذا الذى نلاحظه — من ميل الفرد الى الانسياق مع الباقين فى اجتماع كبير — نجده أيضا فى ميل الأفراد الى عدم الخروج على الجماعة بوجه عام فى تقاليدها وآدابها وعاداتها .

ونلاحظ أن الفرد اذا كان فى جماعة صغيرة ، فاننا نجده غالبا يميل الى الاعتراض والمناقشة ، وذلك لأن درجة الاقناع المحيطة بالفرد فى اجتماع صغير أقل منها فى اجتماع كبير ، ولذا كان الانسياق مع بقية أفراد الجماعة أقل فى هذه الحالة منه فى الحالة السابقة . ونجد أن خوف الفرد من تصدى بقية أفراد الجماعة أقل احتمالا للوقوع ، وذلك بسبب قلة العدد . ولهذا السبب كان تجميع الطلاب فى مجاميع صغيرة ، لا يزيد عدد كل منهما عن العشرين ، أكثر تشجيعا للمناقشات الفردية التى من شأنها أن تزيد من ثقة الطالب بنفسه ، وتظهره على نواحى قوته وضعفه . وهذا لا يتوفر فى حالة حشد الطلاب فى مجاميع كبيرة لتلقى محاضرات بصورة سلبية لا يسمح لهم فيها عادة بالاعتراض أو المناقشة . ولهذا يميل الزعماء الدينيون والسياسيون الى بث أفكارهم ومبادئهم ودعواتهم فى اجتماع كبير العدد . وقد سار على هذا المنهج « هتلر » ، و « موسولينى » ، وقادة الثورة الفرنسية ، وغيرهم .

وقد تكون الجماعة عاملا مساعدا ، فتعمل كوسط ملائم اذا وجد فيه الشخص فانه يمتص الفكرة الصادرة عن زعيم أو خطيب بسهولة أكبر مما لو كان منفردا أو فى جماعة صغيرة . ويمكن أن تكون الجماعة عاملا أصيلا ، فتكون الفكرة منتشرة فى أفرادها بحيث يكونون مصدرا لها . ولما كان المصدر عددا من الأفراد — وليس فردا واحدا — كان أثره كبيرا بفعل التكرار من ناحية ، وبفعل التأثير الجماعى من ناحية أخرى . وهذا واضح فى الانتقال المستمر للتقاليد والعقائد والمبادىء من جيل الى آخر .

والمشاهد أن الأثر الاستهوائى للسلوك أكبر بكثير من الأثر الاستهوائى لمجرد الكلام . فاذا كنت سائرا فى الطريق مصطحبا طفلى ، واعترضنا كلب هائج فقدأقول له : كن شجاعا ، ولا داعى للخوف من الكلاب ؛ ولكن قد يبدو فى حركاتى ونبرات صوتى ما يدل على ما عندى من خوف . وفى هذه

الحالة لا يجدى ما أقوله للطفل ؛ ونما أجده يأخذ فكرته من سلوكى وما يدل عليه . ذلك لأن سلوكى كان تعبيرا صادقا بالرغم مما وجهته الى الطفل من كلام أقصد به مخلصا ابعاد الخوف عنه . ومثال آخر لاستهواء السلوك : الشخص الذى يسب صغاره ، ثم يلقنهم عبارات يحاول أن يعلمهم بها أن السب خصلة مرذولة . ونجد على هذا المنوال أمثلة كثيرة فى العادات الصحية وعدم التمسك بها ثم حث الصغار على اتّباعها . وينطبق هذا على ميادين الدين والتقاليد والأخلاق وما الى ذلك مما يبين أهمية القدوة العملية .

أنواع الاستهواء :

سبق أن أشرنا — ضمن ما تقدم — الى تقسيمين لأنواع الاستهواء . فأحد هذين التقسيمين يضع نوعين للاستهواء ؛ هما : الاستهواء الفردى ، والاستهواء الجماعى . ففى الاستهواء الفردى يكون التأثير قائما بمفرده ، أما الاستهواء الجماعى فيكون فيه المتأثر فردا ضمن جماعة . أما التقسيم الآخر فانه يضع نوعين آخرين ؛ هما : استهواء السلوك ، واستهواء الكلام ، والفرق بين النوعين أن المؤثر فى أولهما مؤمن بفكرته ممتلىء بها ويظهر أثر امتلائه بفكرته وسلوكه دون قصد أو تعمل . أما النوع الآخر فان الفكرة فيه قد لا تعدو مجرد التعبير الكلامى . بهذا قد تكون سطحية لا أثر لها فى سلوك المؤثر ، مما يجعله يبدو أحيانا على شىء من التناقض ، لانعدام التطابق بين سلوكه وكلامه . وهو فى غالب الأحيان غير مدرك لهذا التناقض.

وهناك تقسيم ثالث يضع نوعين آخرين للاستهواء ؛ أحدهما يسمى الاستهواء الايجابى ، والآخر يسمى الاستهواء الضدى . فنجد أن المتأثر فى حالة الاستهواء الايجابى يتقبل فكرة المؤثر . فاذا سمع شخص من صديق له أن الجو بارد فقد يوافقه على فكرته ، وقد يذهب الى أبعد من ذلك فيحس احساسا واضحا ببرودة الجو . هذا مثال يبين ما يحدث فى الاستهواء الايجابى . وفى مثال آخر قد يسمع الشخص مديحا فى شخص آخر ، فنجده لا يتقبل الفكرة بل يتقبل عكسها ، فيعقب على ما يسمعه من مديح بعبارات الذم والهجاء والميل الى ابراز العيوب ؛ وهذا ما يحدث فى مواقف الاستهواء الضدى .

وتختلف درجة الاستعداد للاستهواء الضدى من شخص الى آخر ، وفى الشخص الواحد من موقف الى آخر ، أو من وقت الى آخر . فبعض الناس — وبخاصة هؤلاء الذين لديهم ما يسمى « عقدة النقص » — نجد عندهم استعدادا عاما للاستهواء الضدى ، يظهر عادة فى كل المواقف ومع كل الأشخاص . واذا كان هذا النقص مرتبطا بناحية معينة فان هذا الاستعداد يظهر عادة فى المواقف التى تبرز فيها هذه الناحية . ونلاحظ أن بعض السيدات لديهن استعداد للاستهواء الضدى مع غيرهن من السيدات بدرجة قد لا تظهر لديهن مع الرجال . وقد يعلل هذا بأن شعورهن بالنقص مع الرجال قد يبلغ حدا يجعلهن يسلمن لهم بكل ما يقولون أو بأغلبه . أما اختلاف درجة الاستعداد للاستهواء الضدى فى الشخص الواحد من وقت لآخر فقد نجد أن بعض الأشخاص لا يظهر لديهم هذا الاستعداد الا اذا طرأت عليهم حالة جسمية أو عقلية تؤدى بهم الى التوتر والانفعال . وهم لا يدركون عادة موقفهم هذا الا بعد انتهاء الأزمة الطارئة . ويلاحظ أن توافر العواطف الايجابية كالمحبة والاحترام والتقدير والاعجاب ، يصحبه عادة استهواء ايجابى . أما توافر العواطف السلبية كالكراهية والنفور والازدراء فيصحبه عادة استهواء سلبى .

وهناك تقسيم رابع يدخل تحته نوعان ، أحدهما : الاستهواء الغيرى ، والآخر : الاستهواء الذاتى . ففى الاستهواء الغيرى نجد متأثرا ومؤثرا متميزين فى الظاهر أحدهما عن الآخر . أما الاستهواء الذاتى فيمكن توضيحه بالمثال الآتى : كان أحد مرضى الربو نائما فى حجرة فى فندق ، وصحا من نومه وهو يشعر بضيق شديد ، فتحسس موضع النافذة حتى لمس زجاجها ، وحاول فتحها فلم ينجح ، فلجأ الى كسر زجاجها ليفرج عن نفسه . ولما كسر الزجاج أخذ نفسا عميقا ، وأحس بعد ذلك بهدوء وراحة شديدين ، ثم عاد الى نومه . ولكنه عندما استيقظ فى الصباح راعه أن يجد أن الذى كسره لم يكن زجاج النافذة ، وانما كان زجاج ساعة حائط كبيرة كانت موجودة الى جوار النافذة . وهذا مثال آخر حدث لى : استيقظت فى يوم من الأيام

وأنا أشعر بصداع شديد ، فأخذت فى جيبى قرصين من « الأسبرين » لأتناولهما عندما أصل الى مقر عملى حتى لا أتعرض للبرد فى الطريق بين المنزل ومقر العمل . ولكننى بعد أن وصلت انهمكت فى عملى بنشاط غير مألوف دام أربع ساعات متواصلة،وعزوت ذلك النشاط الى«الاسبرين» وبدأت أعدد لنفسى فضائله ومزاياه وأثنى على منتجيه . وحدث فى أثناء هذا ان وضعت يدى فى جيبى فاذا بى أجد فيه « الاسبرين » كما هو لم يمس ويحدث لى أحيانا أن أجد نفسى متعبا ؛ ومع هذا اشعر بمقدرة على مزاولة العمل . ولكن يحدث كذلك أن اختبر درجة حرارتى فى مثل هذه الحالات ، وفى اللحظة التى أجد فيها أن درجة الحرارة على شىء من الارتفاع يزداد عندى الشعور بالتعب وبآثار المرض . فالشعور الاضافى بالتعب نشأ عن معرفتى بارتفاع درجة الحرارة . ويلاحظ عادة أن الانسان يمكنه أن يسير فى طريق ضيق لا يتجاوز عرضه نصف المتر ، ولكنه يعجز عن السير فى طريق يبلغ عرضه ضعف الطريق الأول أو ثلاثة أمثاله اذا كان على جانبى هذا الطريق هوتان سحيقتان أو ماء يجرى .

نلاحظ فى أمثلة الاستهواء الذاتى أن شيئا من التأمل يكشف لنا عن وجود عنصر التأثير الغيرى . فزجاج النافذة ، وأقراص « الاسبرين » ، ومقياس الحرارة ، وشدة ارتفاع الطريق مع منظر الهوتين أو الماء الجارى حوله ؛ كل هذا يعمل عمل المؤثر . من هذا نرى أن ما يسمى بالايحاء الذاتى لا يختلف عن الايحاء الغيرى فى جوهره .

واذا انتقلنا الى الاستهواء الغيرى نجد أن المتأثر لا يعترف عادة بأنه يمتص أفكار غيره ، وانما يؤكد للناس ولنفسه أن أفكاره نتيجة اقتناع ذاتى . ولهذا يتبين أن الاستهواء الغيرى يتوافر فيه العنصر الذاتى . وعلى هذا لا يختلف الاستهواء الغيرى عن الاستهواء الذاتى فى جوهره .

الاستهواء والعلاج النفسى :

اذا حللنا العملية الاستهوائية ، وجدنا أن الموقف يتطلب خضوع المتأثر للمؤثر ؛ فاذا كانت فكرة المتأثر عن المؤثر أنه قوى الشخصية أو غزير العلم

فان المتأثر يكون خاضعا ، ويكون المؤثر مسيطرا فى العملية الاستهوائية ؛ ومعنى هذا أن تقبل المتأثر لفكرة المؤثر فيه تسليم ضمنى بالنقص . وهذا مما يفسر كون عملية الاستهواء عملية عقلية لاشعورية . وهذا بدوره يفسر مبلغ القوة التى تلاحظ فى تأثير عملية الاستهواء .

لهذا كان الدور الذى لعبه الاستهواء فى العلاج النفسى دورا بارزا . فقد كان المعالجون النفسيون يلجئون اليه قبل ظهور « فرويد » ، وما زال الكثيرون يمارسونه حتى اليوم . وقد كان « كوويه » فى مدينة «نانسى»من أعمال « فرنسا » اماما لمدرسة الاستهواء ، وكان يوحى الى المريض بأنه فى تحسن مستمر ، وكان يدفعه الى أن يوحى الى نفسه أنه فى تقدم مضطرد . ولا يكاد المريض يقوم من نومه فى صبيحة كل يوم حتى يردد لنفسه أنه يشعر بالتحسن فى صحته . وقد عالج بهذا حالات الصداع والخمول وما الى ذلك.

والسر فى عدم اعتماد المعالجين النفسيين على الاستهواء اعتمادا كليا أنه يتناول العرض دون السبب ، وهذا هو ما تغلب عليه التحليل النفسى ، ويلجأ المعالجون النفسيون الحديثون الى الجمع بين الاستهواء والتحليل النفسى ، وغيرهما من الطرق المكملة لهما .

ويصل الاستهواء الى أقصى درجاته فى حالات النوم المغناطيسى . ولكن الالتجاء الى التنويم المغناطيسى ليس دائما مرغوبا فيه لأن نتائجه فى العادة وقتية ، وفى كثير من الأحيان تكون نتائجه عكسية . ولهذا نرى عدم الدخول فى تفاصيله بالرغم من أن له أسسا علمية . وقد أحيط هذا الموضوع لسوء الحظ بكثير من الشعوذة ، وهى ليست من علم النفس فى شىء .

تجارب فى الاستهواء :

من بين التجارب التى أجريت فى هذا الميدان تجربة قام بها «ساتو».وقد كان يعتمد فى علاجه على الاستهواء الجمعى . خطر له يوما أن يجرى تجربة بأن قدم لمرضاه كئوسا من شراب ، وبعد أن شربوا ما فيها أبدى لهم أسفه على أنه قد أخطأ فقدم لهم سائلا مقيئا بدلا من النبيذ الذى قصد أن يقدمه . وما كاد ينتهى من عبارته حتى بدأ مرضاه تظهر عليهم

علامات التقزز ويخرجون من الغرفة للتقيؤ واحدا بعد الآخر . وقد تبين بتجربته هذه مبلغ قوة تأثير الاستهواء الجمعى .

وقد قام «فلوجل» بتجربة أوحى للنائم فيها بأن يمشى على يديه ورجليه ثلاث مرات حول الحجرة ، وأن يبدأ هذا بعد زمن محدد من ايقاظه . فلما أوقظ النائم ، ومضى الوقت الذى حدد له فى أثناء نومه قال انه لا بد له على سبيل التريض من أن يمشى على يديه ورجليه حول الحجرة ، وقام بهذا العمل مبررا اياه بأنه ضرورة رياضية . وقد أثبت المجرب بها أن الفكرة الاستهوائية تتسلط على المتأثر ، ويصحبها عند تنفيذها شىء من التبرير .

وقد قام كذلك « افلنج » بتجاربه على تلاميذ المدارس . وفى احدى هذه التجارب كان يطلب من التلميذ أن يضع كفه على لوح نحاسى ، ويوحى اليه بأنه لن يستطيع قلب كفه بعد امرار تيار كهربائى خفيف فى اللوح النحاسى ، وقد نجحت هذه التجربة . وأجرى الى جانبها تجارب أخرى أثبت من مجموعها أن التلاميذ الأذكياء أقل قابلية للاستهواء عادة من التلاميذ الأغبياء . وقد تنوعت التجارب التى تجرى فى هذا الميدان تنوعا كبيرا ، مما يجعل من العسير الاستمرار فى سرد أمثلة من كل منها .

غير أننا يمكن أن نشير الى بعض التجارب البسيطة التى تجرى عادة فى معامل علم النفس . من ضمن هذه التجارب أن تعرض على المفحوص لوحة عليها عدد من الأشكال والموضوعات ، عليها مدية ومقص ومفك ، وعليها طوابع بريد ذات ألوان مختلفة ، وعليها عدد من الأزرار بعضها أبيض وبعضها أسود وغير ذلك . وبعد أن يطلع المفحوص على اللوحة يطلب منه الاجابة عن أسئلة من النوع الآتى :

أكان الزرار الأبيض مثبتا بخيط أبيض أم بخيط أسود ؟

أكانت الفتاة التى فى الصورة واقفة بجانب الباب أم كانت تنظر من النافذة ؟

أكان طابع البريد الأخضر مختوما بخاتم البريد أم غير مختوم ؟

من أى نوع كانت الموسى الموجودة فى الصورة ؟

وقد صيغت هذه الأسئلة وأمثالها بحيث توحى باجابة معينة قد لاتكون

ممكنة بالنسبة للصورة المعروضة . ففى السؤال الثانى قد لا تكون هناك فتاة بالمرة ، ومع ذلك يجيب المسئول بما يدل على وجودها . كذلك صياغة السؤال الثالث يمتنع معها الشك فى أن هناك طابعا أخضر ، وعلى المسئول أن يجيب اذا كان الطابع الأخضر مختوما أو غير مختوم . وتشبه هذه الأسئلة السؤال الذى سبق أن أشرنا اليه ، والذى وجهه شخص الى آخر عما يظن أن تكون عليه « شجرة المكرونة » .

وفى تجربة أخرى تقدم للمفحوص أوزانا متساوية ذات أحجام مختلفة ، ونطلب منه أن يقارن بينها بيديه ليحكم أيها أثقل وأيها أخف ، فيحكم عادة أن الأحجام الصغيرة أثقل من الأحجام الكبيرة رغم تساويها فى الوزن . ذلك لأن الحجم الكبير يوحى بوزن كبير ، فتتهيأ العضلات لحمل وزن كبير ، ولهذا يبدو الوزن أخف مما كان ينتظر . أما الحجم الصغير فانه يوحى بوزن صغير ، فلا تتهيأ العضلات الا بما يكفى لحمله ، ولهذا يبدو أثقل مما كان ينتظر .

ونلاحظ فى خبرتنا اليومية أننا اذا أقدمنا على حمل حقيبة نظن أنها ممتلئة فانها تبدو فى اللحظة التى نرفعها فيها أخف كثيرا من وزنها الحقيقى ، ويحدث العكس عند الاقبال على حمل حقيبة نظن أنها فارغة .

الاستهواء والتربية :

يبدو مما تقدم أن القابلية للاستهواء يمكن الافادة منها الى مدى بعيد فى نقل الأفكار الى الناس عامة ، والى الأطفال بصفة خاصة . أما الأطفال — بحكم قلة نضجهم العقلى ، وضعفهم اذا قيسوا بالكبار — فانهم يمتصون كثيرا مما حولهم من الأفكار ، فيمتصون من آبائهم أفكارهم عن السلوك — المقبول منه وغير المقبول — ، كما يتقبلون أفكارهم عما يرونه جميلا ، وعما يرونه غير جميل ، وهكذا يمتصون كثيرا من الأفكار عن الدين والتقاليد والقيم الجمالية والقيم الخلقية . ويتم هذا الامتصاص دون قصد ، فينشأ الطفل شاعرا بانسجام فى أوساط دون أخرى ، بسبب ما اكتسبه من الجو المحيط به . ولذا كان من المبادىء الأولية الهامة ، أن الآباء اذا عنوا بالتمسك

بخير العادات وأحسن المبادىء ، فانهم لا يكونون فى حاجة الى بذل جهد كبير فى تربية أبنائهم . وهذا الذى قلناه عن الآباء وما يحيط بهم من جو المنزل نقوله عن المدرسين وما يحيط بهم من جو المدرسة ، واذا أمكن أن يراعى هذا فى المجتمع الأكبر يكون له أثر بعيد المدى .

ومن هذا نفهم أن الاستهواء له أثر كبير فى حفظ التراث الثقافى من جيل الى جيل ، على أن هذا لا يعنى أن نعتمد على الاستهواء اعتمادا يترتب عليه اضعاف القوى النقدية ، وانما يجب أن يكون هناك مجال للمناقشة والتأمل والتعليل ، ويجب أن تترك للطفل حرية الاختيار ، والبت لنفسه وبنفسه فى كثير من المناسبات ، كاختيار الملابس ، واختيار ما يقرأ من كتب ، وما يشاهد من أفلام سينمائية ، وما يتابع من هوايات ، ومن يصاحب من أصدقاء وما الى ذلك . فعلى الوالد أو المدرس أن يفصح عن آرائه ، وأن يسمح للناشىء أن يفصح كذلك عن آرائه . وعلى الكبار أن يروضوا أنفسهم على حسن الاستماع لآراء الصغار ، ثم عليهم أن يدعوا لهم فرصة عادلة للمناقشة ، والأخذ والرد ، ثم على الآباء أن يروضوا أنفسهم أيضا على ترك الناشىء يختار طريقه بعد هذا ، فيفيد من تجاربه ومن اصاباته وأخطائه . كما يفيد من المستويات الثابتة التى يلمسها فى والديه ومدرسيه وجو المنزل وجو المدرسة .

ويمكن المدرس أن ينقل كثيرا من اتجاهاته وعاداته الى تلاميذه ، ولكن عليه أن يعود تلاميذه نقد ما يقرءون وما يسمعون ، وأن يعودهم الفحص العلمى لما يقع فى حدود خبرتهم من تجارب ، ويخطىء بعض المدرسين اذ يظنون أحيانا أنهم يستنبطون الحقائق فى تدريسهم من تلاميذهم. والواقع أنهم عن طريق الأسئلة الجزئية الكثيرة يوحون بجزء كبير من الاجابة ، فلا يتاح للتلميذ مجال للتفكير الشخصى . ومن أمثلة ذلك مدرس يريد أن يلقى درسا فى خصائص كل من الخشب والزجاج فيلقى على تلاميذه أسئلة تحمل نصف الاجابة أو أكثر من نصفها مثل :

أى هاتين المادتين معتم وأيهما شفاف ؟

أيهما قابل للاحتراق ، وأيهما غير قابل للاحتراق ؟

وكان الواجب أن يلقى المدرس على تلاميذه سؤالا عاما ويدعهم يفكرون ، وليكن هذا السؤال مثلا :

ما الفروق بين الخشب والزجاج ؟

فيضطر الأولاد أن ينقبوا فى خبراتهم السابقة ، ويدلى كل منهم بفرق من الفروق فيجمع المدرس هذه المادة ، ويستعين بهم فى تركيبها ، فيتكون منها درس مستنبط حقا من أفكار التلاميذ وخبراتهم .

يتضح من كل هذا أن الاستهواء يلعب دورا هاما فى تربية النشء ، غير أنه لا يجوز الاعتماد عليه بالدرجة التى تؤدى الى اضعاف شخصياتهم ، وقدرتهم على النقد والتفكير المستقل .

المراجـــع

1. Brown, W. : Suggestion and Mental Analysis.
2. Fox : Educational Psychology.
3. Keatinge : Suggestion in Education.
4. Mc Dougall : Social Psychology, Ch. IV.
5. Ross, J. : Groundwork of Educational Psychology
6. Tuckey, L. : Hypnotism and Suggestion.

٧ ـ القوصى : أسس الصحة النفسية .

obeikandl.com

الفصل العاشر

المشـــاركة الوجدانيـــة

طبيعتها :

يحدث أحيانا أن يجد المرء نفسه فى جمع من الناس ، ثم يضحكون جميعا لفكاهة قيلت فيضحك معهم ، ويستغرق أحيانا فى الضحك ، ثم يسأل من بجواره أن يعيد له الفكاهة لأنه لم يسمعها جيدا . كذلك يحدث أحيانا أن يكون المرء وسط جماعة من الباكين فلا يتمالك نفسه اذ ذاك من البكاء . وهكذا نجد حالات الهياج ، والغضب ، والحزن ، والمرح ، والاشمئزاز ، والألم تنتشر بين الناس بسهولة كبيرة . ونشاهد مثل هذا عند الحيوان ، فنباح الكلب يستثير نباح الكلاب المجاورة ، ويلاحظ الذين يعيشون فى الريف أن نباح الكلاب يبدأ منخفضا وفى دائرة محدودة ، ثم يعلو وينتشر الى مسافات بعيدة على شكل موجات يتبع بعضها بعضا . ولا يكاد بعض الديكة يرسل صيحته عند الفجر حتى تتجاوب معه بقية الديكة . وتعلو هذه الصيحات وتنتشر بنفس الطريقة التى سبق ذكرها . ونرى أيضا أن الشاة تفزع وتجرى فنجد بقية القطيع يجرى من الفزع تبعا لذلك .

وفى هذه الأمثلة نجد أن الحالة الانفعالية تنتقل من مؤثر الى متأثر بعد أن يدرك المتأثر المظاهر الخارجية لهذه الحالة عند المؤثر فكأن الشرط الأول لهذا النوع من الانتقال أن يكون لدى المؤثر حالة وجدانية قوية لها تعبير ظاهرى واضح ، يدركه المتأثر ادراكا حسيا ، فتنشأ عنده حالة وجدانية مشابهة لحالة المؤثر . وانتقال الحالات الوجدانية بين الكائنات الحية على هذا المنوال يسمى المشاركة الوجدانية .

وتوجد فى عالم الطبيعة ظواهر مشابهة لهذه الظاهرة . فنعلم فى علم الصوت أنه اذا كان لدينا صندوقان صوتيان« ا ، ب» قابلان للاهتزاز بنغمة صوتية واحدة،ووضعا متجاورين،واهتز«ا» بواسطة شوكة رنانة فاننا نجد أن «ب» يستجيب لاهتزازه بأن يهتز بالنغمة نفسها دون تأثير ظاهرى آخر. كذلك نعلم فى علم الكهرباء أنه يمكن احداث التيارات الكهربائية بالتأثير فيما يسمى بالملف الثانوى الذى لا يمر فيه من الأصل تيار ، وذلك عندمجرد اقترابه مما يسمى بالملف الابتدائى الذى يمر فيه تيار أصيل . ويقرب هذان المثالان الى أذهاننا فكرة مجال المؤثر ، ومجال المتأثر ، وما بينهما من مجال فى الظاهرة النفسية التى نحن بصددها .

ويخطىء بعض الناس فى تعبيراتهم العامة عن المشاركة الوجـدانية . فاذا قرأ الواحد منهم خبرا عن وفاة عزيز ، فقد يعتبر تأثره مشاركةوجدانية، مع أنه يشترط للمشاركة الوجدانية ادراك التعبيرات الحسية الظاهرة للحالة الانفعالية . أما ما ينتج عن قراءة الخبر فى الجريدة فليس فى العادة الا تأثرا ناشئا عن استثارة الذكريات والعواطف ، وناشئا عن تقدير ما ينجم عن الوفاة من نتائج . ومن أمثلة ذلك أننا نقرأ خبرا مؤداه أن فلانا قضى نحبه ؛ وهذه الطريقة فى التعبير هى مجرد نقل خبر بأسلوب غير محمل بالشحنة الانفعالية التى تصحب عادة مثل هذه الأخبار ، فعندما يقرؤه أحد الناس لا يتأثر بالجملة الاخبارية فى ذاتها ، ولكنه يتأثر بما قد يترتب على صحة هذا الخبر من نتائج . ليس معنى هذا أن كل ما يقرأ فى الصحف ينطبق عليه ما قلناه من الصـفة الاخبارية المجردة . فقـد نقرأ فى الصحيفة قصيدة مشحونة بالتعبيرات الانفعالية التى تنتقل الى قارئها ، وبهذا نجد أنفسنا أمام مثال من أمثلة المشاركة الوجدانية المرتبطة بالتعبيرات اللغوية المكتوبة . والمتأثر فى هذه الحالة هو القارىء أما المؤثر فهو الشخص الذى ألف القصيدة والتعبير الظاهرى للانفعال الذى يساعد على نقل الحالة الانفعالية من المؤثر الى المتأثر هو القصيدة الشعرية نفسها .

شروطها :

واذا درسنا المواقف التى يتم فيها حـدوث المشاركة الوجدانية فاننا نجد أنها تتم عادة بصورة أوضح عند النساء أكثر منها عند الرجال ، وعند الأطفال أكثر منها عند الكبار ، وعند الأغبياء أكثر منها عند الأذكياء ، وعند الجهلاء أكثر منها عند العلماء . وعند الجماعات أكثر منها عند الأفراد . ولعـل السر فى هذا واضح . فاذا قورنت النساء بالرجال ظهر أن الحياة العقلية للنسـاء أكثر تشبعا بالاستعداد للتأثر الانفعالى منها عند الرجال ، واذا قورن الأطفال بالكبار وجدنا أن نضج الكبار وذكاءهم وخبرتهم كلها تساعدهم على تنظيم انفعالاتهم وعلى ضبطها ، مما يجعل الأطفال بوجه عام أكثر قابلية للتأثر الانفعالى من الكبار . وما قيل فى الموازنة بين الأطفال والكبار يمـكن أن يقال فى الموازنة بين الأغبياء والأذكياء ، وبين الجهلاء والعلماء .

ويلاحظ — كما قلنا — أن انتقال الحالات الانفعالية بين الأفراد اذا وجدوا فى جماعة كبيرة يكون أسرع وأوضح منه اذا وجدوا فى جماعـة صغيرة . فالفكاهة التى تثير الضحك فى جمع كبير من الناس ، قد لا تكون كافية لاثارة الضحك فى أفراد مجموعة صغيرة . كذلك الخطبة التى تثير حماس جمع كبير حاشد ، قد لا تثير حماس اثنين أو ثلاثة يستمعون لها منفردين. والمعروف أن الأفراح يتزايد عنصر المرح فيها بتزايد عدد المشتركين فيها . كذلك المآتم يزداد قدر الحزن تزايدا كبيرا بزيادة أعداد المشتركين فيها . لهذا فاننا نجد أن الناس قد درجوا فى مختلف الأزمنة ومختلف الأمكنة، وفى مختلف مستويات التحضر والثقافة على أن يعدو العـدة الخاصـة لاستقبال أفواج من الناس يعاونون على تضخيم السرور أو تضخيم الحزن. والجماعة فى هذه الحالة تلعب دور المؤثر والمتأثر . ولذلك نجد أن جماعة النسوة فى المآتم تبدأ بحالة انفعالية على درجة معتدلة أول الأمر ، ثم تظل تتزايد وتكبر ، وفى أثنـاء هذا كله نجد الجماعة مؤثرة فى نفسها متأثرة بنفسها .

بهذا نجد أن الأفراد يختلف بعضهم عن بعض فى قابليتهم للمشاركة الوجدانية بحسب جنسهم ، أو سنهم ، أو درجة ذكائهم أو مبلغ ثقافتهم ، أو بمقدار حجم الجماعة التى يوجدون بها . ونجد كذلك ان الأفراد يختلفون فى هذا باختلاف أمزجتهم ؛ فهناك أناس يتأثرون بما حولهم من تعبيرات انفعالية تأثرا سريعا واضحا ، لا يمكن الربط عادة بينه وبين ما سبق ذكره عن الجنس أو السن أو الذكاء أو الثقافة أو الوجود فى جماعة .

ويختلف الناس بعضهم عن بعض فى الاتجاه الذى تأخذه عندهم المشاركة الوجدانية ، وذلك بحسب اتجاه استعدادهم للتأثر الوجدانى ، فأناس أميل الى المرح ، وآخرون أميل الى الحزن . ونجد الصنف الأول يشارك فى الأجواء المرحة أكثر مما يشارك فى غيرها ، ونجد العكس فى الصنف الثانى .

واستعداد الفرد للمشاركة الوجدانية يتغير من وقت الى آخر ، وذلك بحسب حالته من حيث الصحة أو المرض ، وراحة الجسم أو اجهاده ، وهدوء الأعصاب أو تهيجها ، وكذلك بحسب الاتجاه النفسى الراهن . فالشخص فى حالة المرض أسرع تأثرا بما يحيط به من حالات وجدانية منه فى حالة الصحة . كذلك نجد الشخص المجهد سريع التأثر بما حوله من وجدانات واذا غمرت الشخص فى لحظة ما حالة انشراح فانه يكون أكثر قابلية للتأثر بما يصادفه من أجواء المرح ، وأقل ميلا للتأثر بما قد يصادفه من أجواء الحزن ، بل نلاحظ أنه يرى المرح فى كل ما يصادفه .

المشاركة الوجدانية والتماسك الاجتماعى :

يرى « مكدوجل » أن المشاركة الوجدانية تلعب دورا أهم مما تلعبه النزعات الاجتماعية الأخرى فى احداث التماسك بين أفراد الجماعة . ويلاحظ أن الجماعات تميل الى التجانس من حيث الجو الوجدانى الذى يشيع فيها ، واذا بدأ فرد فى جماعة ما يشذ عنها فى الحالة الوجدانية فانه سرعان ما يميل الى مسايرة الجماعة ، واذا لم يتمكن من هذا فان الجماعة

تميل عادة الى ابعاده عنها حتى يتم لهـا الشعور بالتجانس الوجـدانى ؛ ويلاحظ هذا بصورة جلية فى الحالات الانفعالية الواضحة ، فاذا شمل الحزن مجموعة من الأفراد ، ثم دخل عليهم شخص فى حالة مرح ، فانهم يميلون الى التخلص منه ، الا اذا انسجم معهم فى حالتهم الانفعاليه ، ويلاحظ أنهم فى هذه الحالات يكرهون أى مظهر من مظاهر المرح ؛ كذلك اذا كانت هناك مجموعة من الناس تشترك فى احياء حفل مرح ، فانها تتضايق ممن يظهر بينها بعلامات الاكتئاب ، وتميل الى التخلص منه حتى تحتفظ بالتجانس فى الجو المرح الذى يسود بينها .

المشاركة الوجدانية والتربية :

تقوم التربية فى جزء كبير منها بتهذيب النواحى الوجدانية ، وتقوم كذلك بغرس القيم التى ترتبط بأنواع السـلوك المختلفة ، ففى التربية الدينية مثلا نريد أن ننشىء التلاميـذ على الشـعور بالتقديس والرهبة والخشوع والشكران والعرفان بالجميل ؛ وهذه الحالات تشيع بصورة أيسر اذا وجد بين التلاميذ من المدرسين من يشعرون بهاشعورا قويا مخلصا ؛ فاذا رتبت الاجتماعات الدينية ، وساعد المدرسون تلاميذهم على استشعار هذه الحالات ، فانهم يشعرون بها . وبتكرار هذه الاجتماعات ، وتكرار أساليب التربية الدينية الأخرى يمكن قطع مرحلة كبيرة نحو تكوين الاتجاه الدينى الصحيح .

ومثل هذا يمكن أن يقال فى التربية الجمالية ، فتذوق الصيغ الجمالية الراقية يجب أن يسود الأوساط التعليمية ؛ حتى يرتقى الذوق . وهـذا لا يتأتى الا اذا كان الناظر والمدرسون يستجيبون للانتاج الفنى الراقى دون غيره ، بهذا نرتقى بتلاميذنا فى تذوق الموسيقى ، والتصوير والتمثيل ويعـاون على هذا الارتقـاء ما يقام من معارض ، ومتاحف ، وحفلات وما يقوم به الناظر والمدرسون من تشجيع واستجابة . كذلك تجب العناية بتجميل مبنى المدرسة وحديقتها وحجراتها ، ومكتبتها ، وناديها ، وأثاثها ؛ تجميلا يساعد على ارتقاء الذوق عند التلاميذ .

ويجدر بنا أن نشير الى وجوب العناية بهذه الناحية ، ونشير كذلك الى أن تدريس الأدب من شعر ونثر يكون فى كثير من الأحيان قاصرا على شرح بعض المعـانى والمفردات ، وعلى حفظها بصورة مجردة من التأثر ، والشعور بجمالها ، بينما اذا قام المدرس باستشعار ما فى القصيدة من نواح جمالية وانسانية فى شىء من الاخلاص ، فانه يمكنه أن يجعل تلاميذه يهتزون بهذه النواحى اهتزازا يكون له أثر بعيد فى التربية الأدبية .

وبنفس الطريقة يمكن اثارة الاستحسان والاستهجان لمختلف أنواع السلوك ، فاستحسان الكبار للسلوك الطيب يشيع مثله فى نفوس من حولهم من الأطفال . وكذلك يمكننا أن نعود تلاميذنا الارتياح لفعل الخـير ، ومشاركة الناس آلامهم ، وعدم الوقوف عند هذا ، بل نعودهم القيام ببعض الواجب نحوهم قياما يشعرهم بشىء من الارتياح للقيام بواجب انسانى .

من كل هذا نرى أن المشاركة الوجدانية يمكن أن تلعب دورا هاما فى جانب من أهم جوانب التربية .

المـــراجع

1. Ginsberg : Social Psychology.
2. Mc Dougall : Social Psychology.
3. Ross E.A. : Social Psychology.

الفصل الحادي عشر

التقليـــد

سبق أن ذكرنا أن الاستهواء هو انتقال الأفكار ؛ وأن المشـــاركة الوجدانية هى انتقال الحالة الوجدانية من المؤثر الى المتأثر . أما انتقال السلوك نفسه فانه يسمى « التقليد » والتقليد ظاهرة موجـــودة بشكل واضح فى الحيوان الراقى ؛ بل له أهمية فى ترقى حياة الكائن الحى نفسه . فالتقليد يظهر بوفرة لدى الانسان . والقردة . وبعض أنواع الطيور . والتقليد عامل هام فى تعلم الانسان طريقة المشى . والـــكلام . والأكل ؛ والشرب . وكثير من عاداته اليومية . وهو كذلك عامل هام فى تشـــكيل الحياة الاجتماعية .

فالانسان مقلد بطبيعته وكذلك القرد والببغاء وغيرهما تقلد بطبيعتها ؛ أما أسلوب السلوك المنقول فهو مكتسب . ولتوضيح هذا نقول : ان لدى الانســـان استعدادا فطريا للتعبير اللغوى . ولديه كذلك استعدادا فطريا للتقليد . وبهذين الاستعدادين وبتوافر شروط أخرى يمكنه أن يكتسب اللغة المحلية التى نشأ فى بيئتها . وبهذا يتحدث من ثغره الألمانية أو الانجليزية أو العربية ، ويتحدث فى كل حالة من هذه الحالات باللهجة المحلية الخاصة. من هذا يتبين أهمية التقليد فى التعلم . وفى كسب أساليب السلوك التى نحكم عن طريقها أحيانا على مستوى صاحب هذا السلوك . فنعتبر أن هذا متمدن وذاك غير متمدن . وأن هذا مهذب وذاك غير مهذب .

ويخلط بعض المشتغلين بعلم النفس بين الاستعداد للتقليد وعمليات التقليد . وواضح أن الاستعداد للتقليد أمر طبيعى فى الانسان والحيوان الراقى ؛ أما عملية التقليد . أو ما يقلده الانسان (أو الحيوان) بالفعـــل — من تشكيلات سلوكية — فانه يتوقف على توافر شروط معينة بعضها

كائن فى الموقف[1] ، وبعضها كائن فى الانسان أو الحيوان . ويميل « بياجية Piaget » الى التفريق بين الاستعداد للتقليد والعملية التقليدية[2] . أما النظر المطلق الى التقليد على أنه من نتاج البيئة أو التعليم فانه أمر لا نوافق عليه خصوصا اذا قيل : ان الطفل يصطنعه ؛ لأنه يجد فيه وسيلة ناجحة لتحقيق دوافعه[3] .

ولا يهمنا فى هذا المقام أن نقدم الأدلة على فطرية الاستعداد للتقليد ، أو عدم فطريته ؛ ولكن يهمنا أن ندرسه على أنه عامل نفسى هام للحياة الجمعية وللتعلم . مثله فى ذلك كمثل الاستعداد للاستهواء والاستعداد للمشاركة الوجدانية .

ونظرا للتداخل الشديد بين ظواهر المشاركة الوجدانية والاستهواء والتقليد ، ونظرا لأننا لا نجد فى العادة احدى هذه الظواهر فى صورتها النقية الخالصة ، فان الأمر قد اختلط على بعض الباحثين ، فأطلقوا اسم التقليد على كل هذه الظواهر . وأراد بعض الباحثين الآخرين أن يفرد لكل ظاهرة اسمها . والموقف يتضح اذا ذكرنا أن الحياة العقلية فى أى

(١) وهذه الشروط الموجودة فى الموقف يسميها المتأثرون بالمدرسة السلوكية ـ أمثال « Dollard » و « Miller » ـ الاشارات الخارجية . على ان « دولارد » و « ملر » يعلنان ـ عند قولهما : أن التقليد « ميكانيزم » يتعلمه الفرد ـ انهما متأثران بمدرسة السلوكيين تحت زعامة « بافلوف » و « واطسون » و « كلارك هل » ويعلنان كذلك أن محاولتهما هذه محاولة مبدئية ويصفانها بانها جزئية ، وبأنها فى حاجة الى الفحص والاختبار ؛ أى أنهما لا يؤمنان بأنها أصبحت نهائية . والمدرسة التى يتأثر بها هذان المؤلفان فى تفسيراتهما للتقليد أصبح أهم أسسها فى ذمة التاريخ . ويمكن مراجعة آرائهما فى

Miller and Dollard : Social Learning and Imitation P. V. P. 76.

(2) Piaget : Play, Dreams and Imitation p. 5.

(٣) وأصحاب هذا الرأى لايفرقون بين موقفين ، أحدهما موقف من يستندون الى مراجعهم من السلوكيين او أنصاف السلوكيين أمثال « دولارد » و « ملر » ؛ والآخر موقف غيرهم ممن يتحدثون عن الدوافع الانسانية الشعورية . وهم يعضدون فى مناسبات أخرى مواقف « الجشتالتيين » الذين لا يؤمنون بفكرة المثيرات البسيطة أو بفكرة ما يسمونه بالاشارات الخارجية . وليس من الممكن لواحد من طلاب علم النفس ان يقف من هذه المدارس المتطرفة هذا الموقف الا اذا ناقض نفسه . فعلى المشتغلين بعلم النفس أن يهضموا هذه الاتجاهات على نحو جديد متكامل ، أو عليهم ان يعلنوا لأنفسهم التبعية لمدرسة دون الأخرى ؛ كما فعل «دولارد» و«ملر» فى كتابهما الذى سبق أن أشرنا اليه .

لحظة توجد مركبة من عناصر تدخل دائما تحت ثلاثة أنواع ، كل نوع منها يقابل احدى الظواهر الثلاثة ؛ فالوجدان يقابل المشاركة الوجدانية ، والادراك يقابل الاستهواء ، والسلوك — أو الناحية التنفيذية للنزوع — يقابل التقليد . ويتضح الموقف أكثر من ذلك اذا تذكرنا أن الفصل الى وجدان وادراك ونزوع ، وكذلك الفصل الى مشاركة وجدانية ، واستهواء ، وتقليد أمور يتطلبها التحليل العلمى . وعلينا أن نذكر كذلك أن تسمية الموقف الواحد باسم واحد يقصد به الاشارة عادة الى العنصر الغالب ؛ فاذا قلنا : ان فلانا فى حالة انفعالية فاننا نقصد أن المظهر الانفعالى هو الغالب على المظاهر الأخرى فى هذه الحالة . كذلك اذا قلنا : ان هذه حالة تقليد ، فاننا نعنى أن عنصر التقليد هو الغالب .

لنأخذ مثالا ما يحدث فى أثناء استماع جمع من الناس الى خطيب مشهور ، فان الجو يوحى بعظمة المتكلم ، وبهذا يستمع الناس ولديهم فكرة واحدة عن قدرة الخطيب ، وتجدهم يشعرون ازاءه بالاعجاب ، ويشتركون جميعا فى هذه الحالة الوجدانية التى تساعد بدورها على تقبل الأفكار ، والناس اذ يظهرون بمظهر الاحترام وحسن الاستماع ، ويعبرون — بالتصفيق ، ومختلف أساليب الاستحسان — عن اعجابهم يقلد بعضهم بعضا فى ذلك . والدليل على هذا أن كثيرا من المستمعين لا يصفق للخطيب الا بعد أن يرى غيره يصفق . ونجد أحيانا أن التصفيق يبدأ من شخص أو أكثر ، ثم ينتشر بسرعة البرق حتى يعم جميع الحاضرين . وقد يقول البعض : انه لا يمكن الفصل بين التصفيق « وهو سلوك خارجى » والاعجاب « وهو حالة وجدانية داخلية » ؛ ولكن اذا تذكرنا أن الاعجاب له تعبيرات مختلفة ، وأن التصفيق لا يخرج عن كونه واحدا منها ، واذا تذكرنا أن التصفيق يحدث أحيانا بدافع المجاملة أمكننا أن نرى ان التصفيق والاعجاب لا يكونان وحدة تجعلنا نعتبر انتشار التصفيق بين الجماهير مجرد مشاركة وجدانية . وبنفس الطريقة لا يمكننا أن نعتبر انتشار الضحك وانتشار البكاء وانتشار الهتاف مشاركة وجدانية صرفة .

من كل هذا نرى أن الظواهر النفسية الاجتماعية تختلط فيها النواحى الثلاث . وقد تبرز فى بعض مواقفها ناحية دون الناحيتين الأخريين . فتقليد الناس بعضهم بعضا فيما يلبسون لا يخلو من انتقال الفكرة ، ومن انتقال التذوق والاعجاب . كذلك انتشار الأفكار عن طريق الدعاية لا يخلو من استغلال انتشار حالة وجدانية معينة ؛ كالخوف مثلا ؛ ولا يخلو من انتشار مظاهر الرعب والفزع . وبهذا تتوافر فى الدعاية الناجحة ظواهر : التقليد والمشاركة الوجدانية ، الى جانب الاستهواء ؛ والظاهرة الأخيرة هى الأساسية فيها .

التقليد والدوافع الفطرية :

بالرغم من أن الكثيرين من علماء النفس — خصوصا الفرنسيين منهم — يميلون الى اعتبار التقليد « غريزة » من الغرائز ، الا اننا نميل الى الأخذ برأى « مكدوجل » الذى يعتبر التقليد استعدادا فطريا عام . ومع هذا ففى التقليد مجال للتعبير عن الدوافع الفطرية المختلفة . وأولى هذه « الدافع الفطرى للاجتماع » [1] . فنحن نتبع سلوكا يشبه سلوك مجموعة من الناس. حتى اذا اجتمعنا بهم شعرنا معهم بشعور الاطمئنان ، وقضينا على شعور الخوف الناشىء من الوحدة . ونجد أحيانا فى المواقف الداعية للتقليد مجالا متسعا لغريزتى السيطرة ،والخضوع . فالشخص الذى يقوم بتقليد شخص آخر يرى فيه تفوقا ، ويشعر بشىء من النقص ازاء ناحية التفوق ، لهذا ينزع الى كسب هذه الناحية حتى يصير متفوقا . وفى هذا النزوع لكسب التفوق ميل واضح الى السيطرة . ونجد أن الشخص المؤثر يشعر بالزهو اذا أدرك أن غيره يقلده ، وقد يخشى أن يتفوق عليه الشخص المتأثر فيبتكر

(١) يرى البعض انه لا يوجد دافع فطرى للاجتماع ، ولكن اذا درسنا سلوك قطيع من الغنم ، او الطيور ، او الحشرات نشعر بالميل الشديد الى الاعتقاد بفطرية النزعة الاجتماعية .

ناحية جديدة ليتفوق بها . وبهذه الطريقة تحدث تغيرات دائمة بين الناس . ويؤدى بعض هذه التغيرات الى تقدم فى عادات المجتمعات .

وتبدأ الابتكارات الجديدة « المودات » فى الطبقات الاجتماعية العليا ؛ ثم نجدها تنتقل بالتدريج الى الطبقات التالية لها ، ثم الى التى تتلو هذه ؛ وهكذا الى أن تصل الى الطبقات الاجتماعية الدنيا . ونجد فى نفس الوقت أن الطبقات العليا تترك ما ابتكرته من « المودات » عندما تراها قد انتشرت الى طبقات أقل منها ، فتتخلى عنها الى غيرها . وهذا التخلى عن « مودة » معينة ينتشر انتشارا تدريجيا من الطبقات العليا الى التى تليها ، ومن هذه الى ما بعدها وهكذا . ولهذه الظاهرة ما يشبهها فى علم الطبيعة ؛ فنجد فى علم الصوت مثلا أن موجة التضاغط تنتشر انتشارا تدريجيا من طبقة الى التى تليها ، وتتبعها فى نفس الوقت موجة تخلخل تسير فى نفس الاتجاه .

شروط التقليد :

لكى يتم تقليد نوع من أنواع السلوك لا بد من توافر ناحيتين ، احداهما : الرغبة فى التقليد ، وثانيتهما : القدرة على تقليد السلوك المراد تقليده [1] ونجد كثيرا من أنواع الحيوان يتعلم عن طريق التقليد ؛ فاليمامة تعلم صغارها الطيران عن طريق التقليد . وبدهى أن اليمامة الصغيرة لولا وجود استعداد طبيعى لديها للطيران لما تمكنت من أدائه . وقد حاول الانسان من قرون عديدة أن يقلد الطير فى طيرانه فلم ينجح بالرغم من توافر الرغبة . فكأن الرغبة ليست كافية لخلق المقدرة . ونجد أن الشعور بالمقدرة يكون أحيانا من عوامل خلق الرغبة فى التقليد ؛ فالشعور بالمقدرة الموسيقية

---

(١) أما تحليل الشروط الى دوافع (Drife) واشارة (Cue) ورجع (Response) وجزاء (Reward) كما قام به « دولارد » و « ملر » فى كتابهما الذى سبقت الاشارة اليه فانه تحليل ناقص لأنه يهمل المقدرة أو أثر النضج ، ويهمل الفكرة الكلية متأثرا بفكرة السلوكيين . وهو يصرح بهذا علنا . راجع كتاب الدكتور مصطفى فهمى : سيكلوجية التعلم .

كثيرا ما يدفع الناشىء لتقليد قادة الموسيقيين ، فيتقن تقليدهم . ونجد أن التقليد وحده غير كاف لخلق الاستعداد ؛ فاذا أراد شخص قليل الذكاء أن يقلد أعمال الأذكياء ، فان محاولته لا تجعل منه شخصا ذكيا . واذا أراد شخص عادى أن يقلد شاعرا موهوبا ، أو كاتبا فذ الأسلوب ، فانه يجد نفسه غير قادر على انتاج يوازى ما ينتجه هؤلاء . ومثل هذا يحدث عند محاولة تقليد مهرة السباحين أو كبار العدائين .

ويقال أحيانا : ان غلاما معينا قد اكتسب الاستعدادات الاعتدائية والاجرامية من قراءة الروايات البوليسية ، ومشاهدة الأفلام السينمائية المثيرة ؛ ولكن هذا غير صحيح . فالذين يقرءون هذه الروايات ، ويشاهدون هذه الأفلام يعدون بالآلاف ، ولكن الذين يتأثرون بها قليلون ، وهؤلاء هم الذين توجد لديهم نزعات كامنة فى هذا الاتجاه . وينحصر أثر الروايات والأفلام فى استثارة هذه النزعات ، وفى تغذيتها بالأساليب والوسائل التى قد تظهر بفعل السينما أو بغيره .

التقليد المقصود وغير المقصود :

واذا كانت الرغبة فى التقليد صريحة كان التقليد مقصودا،أما اذا كانت الرغبة غير صريحة أو لاشعورية كان التقليد غير مقصود ؛ فالطفل يقلد والديه فى لهجة الحديث ، وفى طريقة المشى ، وفى كثير من العادات ، واللازمات دون أن يقصد الى ذلك . ويبدو الطفل كما لو كان يمتصها امتصاصا من والديه . كذلك نجد شخصا يعجب بشخص آخر ، ويضعه من نفسه موضع المثل الأعلى ؛ فيقلده — دون أن يقصد — فى أسلوبه ، وفى نبرات صوته ، وعاداته الشخصية ، وغير ذلك . فقد كان « سعد زغلول » فى خطبه وأحاديثه ينطق حرف القاف « ق » كافا « ك » فكنت تجد شباب الثورة المصرية فى عهده ينطقون حرف القاف كافا تبعا لذلك ، وكان يتم لهم هذا دون تصنع أو قصد . من هذا نرى أن التقليد غير المقصود

لا يقتصر على حسنات السلوك ؛ بل قد يتعداها الى غيرها دون تمييز . فالشخص المتأثر يتقمص — عن طريق لاشعورى — شخصية المؤثر كلها أو أغلبها .

ومن أمثلة التقليد غير المقصود انتشار السلوك بين جماعات الناس ؛ فاذا صفق الناس نصفق معهم ، واذا بكى عدد من الأطفال فى جماعة بكى الباقون ، واذا تثاءب أفراد فى جماعة تثاءب الآخرون . وهنا نجد أثر الجماعة فى تيسير التقليد حتى يتم بطريقة تكاد تكون آلية . ولعل السر فى انتشار أنواع السلوك بين الناس أنهم — فى أثناء اجتماعهم — يعملون فى اتجاه واحد اذا لم يكن هناك ما يدفعهم لعمل العكس ؛ واذا لم تكن هناك ضرورة لتكوين حكم مستقل . والانسان فى جماعة لا يحاول عادة أن يشذ عنها حتى لا يتعرض لسخط الجماعة ؛ ولو أن فكرة سخط الجماعة أو رضائها لا توجد اذ ذاك فى ذهن المقلد بشكل صريح . وتشترك جماعة من الناس فى القيام بعمل معين — مهما كان تافها — لأن هذا الاشتراك يترتب عليه شعور الفرد بأنه واحد ضمن الجماعة ، ويترتب عليه تبعا لذلك نوع من الاطمئنان يصحبه شعور بلذة أداء العمل ، وهذا الشعور ناتج عن سهولة أدائه مع الجماعة . لذلك كانت التمرينات الرياضية الفردية ثقيلة الأداء ، يملها صاحبها بعد فترة قصيرة ، ويحب عادة اذا أداها أن يتم له ذلك فى مكان منعزل لا يراه فيه أحد ؛ بينما تجده يؤدى نفس الحركات الرياضية فى يسر واستمتاع واستغراق اذا حدث ذلك مع جماعة من الناس تشترك كلها فى نفس العمل . ونجد هذا يحدث فى الغناء ، وفى الرقص ، وفى الصياح وفى التصفيق ، وفى التدخين ، وغير ذلك .

ونجد فى التقليد المقصود أن هناك نزعة لتركيز الانتباه فى العمل المراد تقليده لا نجد مثيلا لها فى التقليد غير المقصود . ومن أمثلة التقليد المقصود تقليد الخط الحسن عند تعلم الخط ، وتقليد حركة معينة عند تعلم الحركات الرياضية ، وعند تعلم الصغير للحركات اللازمة فى صناعة معينة ؛ كالنجارة

وما شابهها . وفى هذه الحالات نجد المتعلم يحاول ويخطىء ، ويكرر المحاولة ، ويتكرر منه وقوع الخطأ ، ونجده يخرج تشكيلات تقرب بالتدريج من النموذج الذى يعرض عليه ؛ ففى تعلم النطق يقلد الطفل نطق والديه ، وعندما يكبر يقلد فى دروس المطالعة — وفى غيرها — نطق مدرسيه ، و فى كل هذا يبدأ النطق فى صورته العامة شبيها بالنموذج ، وتأخذ هذه الصورة العامة — كلما ازدادت المحاولات وازداد التشجيع — فى الاقتراب من حيث التفاصيل ، ومن حيث العلاقات بينها من هذا النموذج

وهذا الذى يحدث فى النطق وفى الكتابة يحدث مثله فى السباحة ، وفى كسب مختلف المهارات . ولهذا يحسن أن تكون النماذج المعروضة على الأطفال نماذج متقنة ثابتة فى أشكالها فى المرحلة الأولى على الأقل . ويخطىء الآباء عندما يحدثون أطفالهم بأسلوب الاطفال ، فيقلبون الراء لاما أو ياء ، ويختصرون الحروف من الكلمات الى غير ذلك ، والأجدر أن يكون الآباء والأمهات على جانب من الدقة فى وضوح نطقهم وتراكيبهم ، وأن يكونوا دقيقين فى كل ما يصدر منهم من سلوك ؛ حتى لا يرتبك الطفل عند تقليده لهم . ويتعلم الطفل أكثر ما يتعلم عن طريق تقليد الأمثلة ، وعن طريق الممارسة لهذه الأمثلة ، وعن طريق الاقتراب التدريجى منها بالمحاولة المتكررة .

ولكيلا يرتبك الطفل عند تعلمه الكتابة فى المراحل الأولى ، يحسن أن تلتزم الحروف شكلا واحدا ؛ فيحسن أن تتخذ كل من «الهاء» و «الكاف» و « العين » مثلا شكلا واحدا فى المرحلة الأولى . أما تنويع الكاف الى ثعبانية وغيرها فيجب تأجيله الى مرحلة متأخرة .

الغرض من التقليد :

سبق أن ذكرنا أن للتقليد عنصرين ؛ هما : الرغبة أو الدافع ، والقدرة أو الاستعداد . وهناك عنصر ثالث يلتقى غالبا مع هذين العنصرين . وهذا العنصر الثالث هو الغرض النهائى من التقليد .

فقد يكون التقليد بدافع تحقيق غاية خارجة عن موضوع التقليد نفسه فاذا عرفت شخصا نجح فى كسب مبلغ من المال بممارسة عمل أو صناعة معينة، وكنت لا أميل الى هذا الشخص أو الى العمل الذى يقوم به ؛ ولكننى أميل الى كسب مبلغ من المال مثله ، فانني قد أقلد الشخص ؛ بل قد أقلده فى العمل الذى مارسه بقصد الوصول الى نفس النتيجة . نلاحظ هنا أن الغاية النهائية من التقليد لا تقع فى الشخص المؤثر ولا فى سلوكه ؛ وانما تقع فى نتيجة هذا كله . فالكسب هو الغاية ، وهو موضوع الميل . أما تفاصيل السلوك ، والشخص الذى يصدر عنه السلوك ، فانهما أمران لا يشتاق المتأثر الى تقليدهما ؛ لولا الغاية النهائية الخارجة عن موضوع التقليد نفسه .

وقد يكون الدافع للتقليد هو الاعجاب بالشخص نفسه ؛ فيحدث أحيانا أن يصل الاعجاب والحب والتقدير الى درجة تجعل المتأثر يتقمص شخصية المؤثر ، فيقلده فى كل شىء حسنا كان أو قبيحا ؛ ونجده يفعل ذلك دون أن يشعر شعورا صريحا بما يفعل . وعندما يقلد الأبناء آبائهم ، أو التلاميذ مدرسيهم ، أو المراهقون أبطالهم يفعلون ذلك كما لو كانوا يمتصون حركاتهم وعاداتهم دون تمييز . والصلة بين الفرد والجماعة — عندما يقلد الفرد أعمال الجماعة التى ينتمى اليها ، أو التى يتوق الى أن ينتمى اليها — تشبه الى حد بعيد الصلة بين الابن وأبيه ، وبين التلميذ ومدرسه . ويسلك المتأثر فى كلتا الحالتين كما لو كان للمؤثر سلطان عليه لا يقوى على مقاومة تأثيره ؛ ففى احدى الحالتين نجد سلطان الوالد والمدرس ، وفى الأخرى نجد سلطان الجماعة . ويبرز أثر السلطان الفردى فى مرحلة التعليم الابتدائى وما قبلها ، كما يبرز أثر السلطان الجمعى فى مرحلة التعليم الثانوى ومن المهم أن نذكر وجوب ثبوت الدستور الذى تتبعه السلطات الفردية ، ووجوب ثبوت تقاليد طيبة فى المدارس

الثانوية . ومثل هذه التقاليد هى التى أكسبت مدارس «ايتون» و «هارو» و « رجبى » صيتها الكبير .

ويحدث أحيانا أن يعجب الشخص بالسلوك نفسه . فقد يرى الواحد منا « بهلوانا » يعجب بحركاته ، ولا يبغى أن يكون « بهلوانا » مثله ، ومع ذلك قد يصل اعجابه بالحركات الى حد الرغبة فى تقليدها ، ويكون القصد من التقليد عادة الرغبة فى فهم طريقة القيام بهذه الحركات ؛ فالفهم الصحيح لا يأتى الا عن طريق الممارسة الفعلية .

فكأن الغاية من التقليد تقع فى السلوك نفسه ، أو فى المؤثر الذى يصدر عنه السلوك ، سواء كان هذا المؤثر فردا أم جماعة . وقد لا تكون للغاية من التقليد صلة مباشرة بالسلوك أو بالمؤثر ، وانما تتصل بنتيجةهذا السلوك كالغنى ، أو النجاح فى الامتحان ، أو غير ذلك . ويلاحظ أن التقليد يكون مقصودا ، ويتطلب انتباها صريحا واضحا فى الحالات التى تكون الغـاية فيها واقعة فى السلوك أو خارجة عن كل من السلوك والشخص ؛ أما اذا كانت الغاية هى التشبه بالشخص ، أو الاندماج فى الجماعة فان التقليد يكون غير مقصود ، ويتم عادة بطريقة لاشعورية .

أنواع التقليد :

يمكن أن يقسم التقليد الى أنواع ثلاثة : التقليد الفردى ، والتقليد الجمعى المؤقت ، والتقليد الجمعى الدائم ، أما التقليد الفردى فهو الذى يتم بين فرد وآخر . فتقليد الولد لأبيه ، وتقليد التلميذ لمدرسه ، وتقليد المراهق لزعيم من الزعماء ، كل هذا وأمثاله يدخل تحت نوع التقليد الفردى. أما اذا وجد الفرد ضمن جماعة ، فصفق معهم ، أو ضـحك لضحكهم ، أو بكى لبكائهم . فان هذا يحدث لأن الفرد موجود ضمن جماعة ، ولولا هذا لقل احتمال حدوث التصفيق ، أو الضحك ، أو البكاء ، فالفرد يصفق للخطيب اذا كان يسمع له ضمن جماعة ، أما اذا كان يستمع بمفرده لنفس

الخطيب بوساطة المذياع فانه لا يحتمل أن يصفق ، كذلك يلاحظ أن النكتة التى تثير ضحكا عاليا — اذا قيلت لجمهور من الناس — قد لاتثير الضحك اذا قيلت لشخص بمفرده. وواضح أن وجودالشخص ضمن جماعةمن عوامل زيادة أثر الاستعداد للتقليد . وقد سبق أن تحدثنا عن مثل هذا فى القابلية للاستهواء ، والمشاركة الوجدانية . وهناك نوع من التقليد الجمعى تجده ثابتا الى حد كبير بين الجماعات الثابتة ؛ كالأمم ، والطوائف ؛ حيث نجد أنواعا ثابتة من السلوك يمارسها أفراد الجماعة ، وهذه ما نسميها بالتقاليد. ومن هذه تقاليد المواسم والأعياد ؛ ومراسيم الزواج ، والطلاق ؛ وغير ذلك . ويلاحظ أن انسجام الفرد فى المجموع يقاس عادة بمقدار احترامه لهذه التقاليد ، وممارسته اياها . ويترتب عادة على انسجام الفرد على هذه الصورة ، شعور بالطمأنينة يشتقه من شعوره بأنه واحد ضمن جماعة .

يتضح لنا من هذا التقسيم أن التقليد اما فردى ؛ واما جمعى . والتقليد الجمعى اما مؤقت ، واما دائم . وتدخل « المودات » التى سبق أن تحدثنا عنها تحت التقليد الجمعى المؤقت .

وهناك تقسيم آخر لأنواع التقليد ؛ فهو اما حسى ؛ واما تصورى . ففى التقليد الحسى يدرك الفرد نماذجه ادراكا حسيا ، ويقلدها مسترشدا بهذه الادراكات الحسية . فالتلميذ الذى يتعلم تحسين الخط — فيتأمل النماذج ويقلدها أو يتأمل حركات مدرسه ويقوم بمثلها — يقلد تقليدا حسيا ، وكذلك يفعل من يتعلم الحركات الرياضية ، وأنواع المهارة الصناعية ، وما الى ذلك . أما التقليد التصورى فان الفرد يدرك النموذج ادراكا حسيا ، ويحاول أن يحتفظ بصورته (فى ذهنه) ، ثم يحاول مسترشدا بهذه الصورة الذهنية أن يقلد النموذج . فنجد أحيانا شخصا محترما يرى حركة تصدر من « بهلوان » ، ويخجل من تقليد هذه الحركة أمام الناس ، فيبذل جهده فى الاحتفاظ الذهنى بصورةهذهالحركة، حتى اذا

خلا الى نفسه حاول استرجاع الصورة ، واسترشد بها فى تقليد الحركة . ومثل هذا يحدث فى كثير من حالات التعلم ؛ كتعلم الحركات الرياضية ، وتعلم الموسيقى ، والغناء ، وما الى ذلك .

وهناك تقسيم ثالث لأنواع التقليد سبق أن تحدثنا عنه تفصيلا . وبناء على هذا التقسيم يقع التقليد فى نوعين : المقصود ، وغير المقصود .

وليس معنى ما تقدم أن أنواع التقليد فى كل من هذه التقسيمات الثلاثة يوجد كل منها على هذه الصورة النقية البسيطة ؛ فاننا نجد أن التقليد المقصود يكون حسيا ، أو تصوريا ، ويكون فى الوقت نفسه فرديا ، أو جمعيا . وكذلك التقليد التصورى يكون مقصودا ، أو غير مقصود . ونجد على غرار هذا تشكيلات متعددة لأنواع التقليد . غير أن الأسس الثلاثة التى اتخذناها لتقسيم التقليد تفيدنا فى تحليل ما نلاحظه عن التقليد فى الحياة الواقعية (١) .

التقليد والتربية :

سبق أن قلنا : ان التقليد من خصائص الكائنات الحية الراقية ، وأنه ضرورى لترقى الانسان . ففى المراحل الأولى يقوم بتعلم المشى والكلام وتعلم كثير من العادات على أساس التقليد . ويستمر التقليد أساسا للتعلم سنوات عديدة . ويعتبر الطفل مرضيا عنه من والديه ومربيه اذا اكتسب أكبر قدر ممكن من عاداتهم وخصالهم عن طريق تقليدهم ، والتشبه بهم .

---

(١) ويقسم البعض التقليد الى أنواع ثلاثة ــ أو مستويات ثلاثة ــ متأثرين فى ذلك بالاستاذين « ملر » و « دولارد » فيقولون : هناك التقليد البسيط ، وهناك تقليد يعتمد على القياس . وهناك نقل ، أو نسخ . وتنص قواعد المنطق أن يكون التقسيم على أساس واحد وأن يكون الأساس واضحا ؛ فلا يجوز أن نقول : ينقسم الناس الى قصار ، وسود ، وسمان . كذلك اذا أخذنا تقسيمات التقليد الواردة هنا ــ دون الرجوع الى أصلها ــ فاننا نجدها تتبع تقسيما متداخلا ، لا يجوز الأخذ به اطلاقا : راجع كتاب الدكتور مصطفى فهمى « سيكولوجية التعلم » .

والطفل الذى ينشأ فى البيوت والمدارس ذات التقاليد الراسخة يسهل عليه كسبها . ونجد هذا فى الأجواء ذات التقاليد الاجتماعية ، أو الدينية ، أو غير ذلك .

واذا نظرنا الى التربية فى العصور الأولى نجدها قامت على التقليد ؛ فالأطفال يتعلمون الحرف من آبائهم عن طريق ملازمتهم وتأمل حركاتهم ، ولذا نجد أن حرفة معينة تنتقل من فرد الى آخر فى الأسرة الواحدة ، ونجدها تنتقل فى نفس الأسرة من جيل الى جيل ، وما زلنا نجد أسرا يقوم أفرادها بصناعة الساعات ؛ ويمكن تفسير هذا على أساس الاستعداد والتقليد .

وكنا الى عهد قريب نجد صناعة معينة فى جهة ما تنفرد بها أسرة معينة ، ونجد أن أساليب الزراعة عند الفلاح المصرى ظلت تنتقل عن طريق التقليد من جيل الى جيل ، ويرجع عهد الكثير منها الى أقدم العصور التاريخية فى مصر . وهذا الذى نجده فى التعليم المهنى فى العصور الماضية نجد مثله فى التعليم النظرى ؛ فقد كان تعليم القراءة والكتابة ، وتعليم كثير من العلوم يقوم على التكرار والحفظ والتقليد ، ويقوم كذلك على أساس الاحتفاظ بتراث الماضى ، ومجرد نقله من جيل الى جيل . وكان العالم فى نظر الناس الى عهد ليس ببعيد هو أكثرهم حفظا لما ورد عن العلماء السابقين ، وسار بين الناس المثل القائل : « ليس فى الامكان أبدع مما كان » . وبهذا حدث نوع من الركود الذهنى ما زلنا نعانى بعض آثاره .

على أننا لا ننادى بالاستغناء عن الماضى ، ومكتشفاته ، ومخلفاته . ولا ننادى بالاستغناء عن التقليد ؛ اذ لا يمكن الاستغناء عنه ؛ فالتقليد — كما قلنا — ضرورى فى كثير من نواحى التربية الدينية ، والخلقية ، والاجتماعية ، والجمالية ، وفى كثير من نواحى كسب المهارات ؛ وتعلم الحرف . والتقليد ضرورى لكسب الأساسيات فى كثير من النواحى الحركية واللغوية . ولا يجوز مع هذا أن تتجه الى صب التلاميذ فى قوالب جامدة ؛

وانما الواجب أن نكسبهم — عن طريق التقليد — مختلف العادات الصالحة ، وأن نهيىء لهم مجالا للابتكار ، والتفكير ، والتعبير الحر عن الاستعدادات الذاتية الفردية . ومعنى هذا أننا ننتقى للتلميذ من تراث الماضى ما يعينه على كسب أساسيات يمكنه أن يبنى عليها بعد ذلك بناء ناتجا من تفكيره ، واستعماله لذكائه ، واستعداداته الخاصة به . اذ حدث هذا فاننا نجد فى الأمة قدرا مشتركا من الثقافة ، ونجد كذلك شخصية مستقلة لكل فرد . ومع استقلال هذه الشخصيات نجد فى القدر المشترك ما يجعل منها مجموعة متناسقة فى كثير من النواحى .

ويلاحظ أن النواحى التى يراعى فيها أن تقوم على التقليد،هى النواحى التى يراد تعودها ، والتى لا يسهل مناقشة الأسس التى قامت عليها . ونرى أن التربية الدينية لا يمكن أن تتم فى المدارس على أساس الاقتصار على دروس الدين ؛ وانما يجب أن يكون بالمدرسة مكان تمارس فيه بالفعل فروض الصلاة ، وأن يكون المدرسون أنفسهم مواظبين فى هذا المكان على أداء هذه الفروض . وهذا الذى يقال فى التربية الدينية يقال مثله فى التربية الجمالية ، والتربية الاجتماعية ، وتكوين آداب السلوك .

وواضح مما تقدم أن المدرس عليه أن يبدأ بتربية نفسه ؛ فيخلص قدر الامكان من كل العادات التى يريد الا تنتقل الى تلاميذه ، وأن يكون فى نفسه من العادات ما يراه جديرا بالاقتباس والتقليد . وعلى المدرس كذلك ألا يطبع تلاميذه على غراره ، وانما يعتبر نفسه مرشدا يهيىء لهم الجو الذى تنمو فيه الفردية نموا متزنا . ويشيع فى هذا الجو نظام المناقشة ، والحكم الذاتى ، والتعبير الحر ، واحترام شخصيات التلاميذ مع عدم الخروج على التقاليد المدرسية الطيبة .

المراجع

1. Mc Dougall : Social Psychology Ch. IV.
2. Stout : Manual of Psychology Bk. III Ch. III
3. Stout : Groundwork of Psychology Ch. III.
4. Valentine, C. W. : Psychology of Early Childhood.
5. Piaget : Play Dreams and Imitation.
6. Miller : Social Learning and Imitation.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثاني عشر

اللعب

مقدمة :

نعالج فى هذا المبحث ظاهرة اللعب . وتنتمى هذه الظاهرة — كما يبدو — لاستعداد طبيعى أو فطرى . فالطفل بطبيعته ومنذ صغره ميال الى اللعب . وهذا الميل الى اللعب عام عند جميع أفراد الانسان . وهو فوق ذلك يشاهد عند صغار الحيوانات الراقية ؛ كالقطط ؛ والكلاب ؛ والقردة. وغير ذلك .

والذين لا يؤمنون — أو الذين لا يريدون ان يؤمنوا — بهذا الرأى ربما يقولون : ان اللعب من نتاج البيئة ، وان الفرد انما يتعلم كيف يلعب والرد على هذا أن من الضرورى أن نميز بين الاستعداد للعب واللعب نفسه. ولا بد ان نذكر أن اللعب — ككل استعداد فطرى — يتعدل بفعل البيئة تعدلا يموه فطريته على الكثيرين . وعلينا أن نشير كذلك الى وجوب الافادة من التأمل فى الشبه العظيم بين لعب الأطفال فى مختلف الأزمنة والأمكنة ، والى التطابق بين التشكيلات السلوكية للعب عند جميع أفراد جنس من أجناس الحيوان .

يمكننا أن نقول : ان الانسان يميل الى اللعب بطبيعته دون أن نطيل فى التدليل على فطرية اللعب . ومع كل هذا فاننا سنعالج موضوع اللعب بغض النظر عن الخلاف على كونه فطريا أو غير فطرى .

اللعب والعمل الجدى :

لعل أول ما يستثير البحث فى موضوع اللعب هو ما يميز اللعب عن غيره من أنواع النشاط ؛ فنحن جميعا نشعر بأن هناك فوارق بين ما يمكن أن نسميه لعبا وما يمكن أن نسميه عملا جديا. ويتعذر علينا الفصل فى بعض الأحيان. ولتوضيح الفكرة نأخذ الأمثلة الآتية: الطفل الذى يجرى، ويرقص ، وينط ، ويلقى بالكرة لزميله لا يمكن أن يقال الا أنه يلعب ؛ اما التلميذ الذى يجلس ليستذكر دروسه ساعات طويلة ؛ لكى ينجح فى الامتحان فلا يمكن أن يقال : انه يلعب ، فهو يعمل عملا يتصف بالجدية بكامل معناها . كذلك الرجل الذى يلعب الكرة أو « الطاولة » فانه يلعب ؛ أما الرجل الذى يحمل الأحجار ليكسب عيشه فانه يعمل عملا جديا لا يتصف بصفة اللعب . وهناك أعمال تبدو وسطا ؛ فلعب الشطرنج يختلف عن لعب « الطاولة » مثلا اختلافا واضحا . « فالطاولة » أقرب الى أن تكون لعبا من الشطرنج . كذلك عمال البناء قد يحملون الأثقال من مكان الى مكان ، ويقومون فى أثناء هذا بغناء جماعى يجعل عملهم الجدى ممتزجا بعض الشىء بروح المرح الذى يسود اللعب . والتلميذ الذى يقرأ رواية ، ويستمتع بقراءتها ، ويؤدى فيها امتحانا ، يختلف عن التلميذ الذى يقرأ نفس الرواية كارها مكرها ليؤدى فيها نفس الامتحان ، ووجه الاختلاف أن العمل الجدى فى الحالة الأولى ، ممتزج بشىء من روح التسلية التى نجدها عادة فى اللعب . واذا أخذنا اللعب من ناحية ، والعمل الجدى من ناحية أخرى ، وجدنا أن العمل الجدى يرمى الى تحقيق غرض خارج عن العمل نفسه ، وأما اللعب فان الغرض منه فى ذهن الكائن الحى هو اللعب نفسه . فالطفل يلعب لأنه يريد أن يلعب ، وأما التلميذ فانه يذاكر لأنه يريد أن ينجح ؛ لا لأنه يريد أن يذاكر . كذلك الرجل الذى يلعب الطاولة ، فانه يفعل ذلك عادة بقصد اللعب . وأما الرجل الذى يحمل الأحجار فانه يفعل ذلك لغرض خارج عن النشاط الذى يؤديه ؛ وهذا

الغرض هو كسب العيش . ونجدأحيانا أن اللعب قد يكون لأغراض خارجة عنه ، كلعب المحترف ، ولعب من لا يقصد الا الى غلبة من يلاعبه . وكذلك نجد أن العمل الجدى يتصف أحيانا بروح المرح والتسلية التى نجدها فى اللعب ، وبذلك يكون بعضه مقصودا لذاته ولا يقتصر على غرض خارج عنه . نرى من هذا أنه لا توجد فى الواقع حدود فاصلة بين بعض أنواع النشاط التى تسمى لعبا ، وبعض أنواع النشاط التى تسمى عملا جديا . اذ نجد أن الغرض يكون فى كثير من الأحيان موزعا بين النشاط نفسه ونتيجته . فاذا تركز الغرض فى النتيجة وانمحى من النشاط نفسه أصبح العمل مملا فى ذاته ، وأصبح جديا بكل معنى الكلمة . أما اذا تركز الغرض فى النشاط نفسه ، وانمحى من الغاية الخارجة عنه ، فان النشاط يصبح لعبا . والغرض الذى يقصد اليه الفردفى أثناء قيامه بالنشاط يرتبط بالحالةالنفسية التى تصحب هذا النشاط .

ويمكننا أن نوازن بين اللعب والعمل الجدى من ناحية أخرى ، وهى ناحيـة التنظيم . فاللعب فى صورته الخالصة يميل الى الحرية والانطلاق ، وأما العمل الجدى فى صورته الخالصة فانه يميل الى التنظيم والتزام قواعد معينة . لهذا كان لعب الشطرنج اذا قورن بلعب الطاولة أقرب الى أن يكون عملا جديا منه الى أن يكون لعبا،وذلك لكثرة قواعده وصرامة القوانين التى يجب اتباعها فيه . ونجد أحيانا مجموعة من الغلمان يلعبون الكرة ضد مجموعة أخرى فى غير نظام ، ونجدهم مستمتعين بهذا أشد الاستمتاع ، فاذا حددت لكل منهم موضعا معينا يكاد يكون ثابتا ، ووظيفة معينـة عليه أن يؤديها ، فان النشاط يبدأ يفقد جانبا كبيرا من صفة اللعب . ونرى أحيانا مجموعة من الأولاد يلعبون لعبا ايهاميا يتخيلون أنفسهم فيه مدرسين وتلاميذ ، وينتخبون من بينهم ناظرا ، ونجد أن التنظيم فى هذه الحـالة ليس بالدقة التى نجده بها فى حالة مدرسة حقيقية . ففى الحـالة الأولى

سرعان ما يصبح المدرس تلميذا والتلميذ مدرسا أو ناظر المدرسة ، وقد نجد الناظر متساهلا فى غالب الأحيان فى القيام بدوره . نلاحظ أن النشاط فى حالة اللعب نشاط حر تلقائى ، وأما فى حالة العمل الجدى فاننا نجده مقيدا توجهه النظم المفروضة من الخارج . وبهذا يكون اللعب نشاطا تلقائيا حرا ممتعا ، ويكون معبرا عن الحالة النفسية الداخلية تعبيرا صادقا . فنجد فى اللعب مطابقة بين الحالة النفسية والنشاط الظاهرى . أما التعبيرات التى تصدر من التلاميذ فى أثناء الحياة المدرسية الرتيبة ، والتى تؤخذ للدلالة على الطاعة ، فانها قد لا تكون معبرة تعبيرا صادقا عن الشعور النفسى الداخلى . وأما تعبيرات الطاعة لقوانين اللعب فانها تطابق ما يشعر به اللاعب وبهذا نجد أن نشاط اللعب تعبير نفسى صادق ، ونجد أن دراسة نفسيات الأطفال تنجح اذا أجريت فى ميادين اللعب أو فى ميادين النشاط الذى يتصف بصفات اللعب . ففى ميادين التعبير الحر كالرسم والكتابة الحرة والتمثيل والغناء والهوايات والألعاب وما شابه ، نجد فرصا مواتية لدراسة نفسيات الأطفال . أما فى الحياة الجدية فان الفرد لا يبدو عادة على طبيعته ليس معنى هذا أن العمل الجدى يهمل فى الحكم على الشخص ، وانما يؤخذ بشىء من الحيطة ، ويكمل بدراسات فى ميادين التعبير الطليق الحر .

نرى من كل ما تقدم أن اللعب تعبير نفسى تلقائى حر ممتع مقصود لذاته[1] .

تفسير اللعب :

لفت موضوع اللعب أنظار الباحثين فى مختلف العصور ، فتأملوا لعب الحيوان ولعب الانسان ، وحاولوا أن يصلوا الى ما قد يكون للعب من

(١) وفى نظرنا أن اللعب ، والفن ، واحلام اليقظة ، واحلام النوم ، والاستماع بالقصة كلها من طبيعة واحدة من حيث التعبير النفسى الصادق .

فوائد ، وأن يفسروا الأغراض التى يمكن أن يؤدى اليها ، ووضعوا نظريات عدة نجد فى كل منها جانبا من الصواب ، ولكننا نجد أن جانب الصواب يزيد فى بعضها على البعض الآخر ، وتبعا لهذا صمدت بعض هذه النظريات ، وضعفت أهمية بعضها الآخر ، وسنحاول أن نشرح كلا من هذه النظريات ، وأن نبين ما لها وما عليها .

اللعب والدوافع الفطرية :

نظرا لأن اللعب استعداد فطرى لدى الانسان والحيوان الراقى ، فان بعض علماء النفس اتجهوا الى اعتباره «غريزة». ومن بين هؤلاء «ثورنديك»، غير أن « ثورنديك » لا يتحدث عن الغريزة بقدر ما يتحدث عن السلوك الغريزى ، واذا لاحظنا الحمل الصغير وهو يلعب مع حمل آخر يناطحه برفق ، وجدنا أن الموقف ليس مما يثير سلوك المقاتلة ، ووجدنا أن سلوك الحمل لا يرمى الى تحقيق الاعتداء والايذاء بالحمل الآخر . ولهذا نجد أن تناطح الحملان فى حالة اللعب لا يستوفى شروط السلوك الغريزى فى نواحيه الادراكية والنزوعية . ونجد كذلك أن انفعال الغضب المصاحب لسلوك المقاتلة ليس موجودا فى حالة اللعب . وبهذا لا نجد العنصر الانفعالى فى تناطح الحملان . وانما نجد حركات تلقائية تدل على الاستمتاع، وتدل على أنها مقصودة لذاتها . ومن ثم لا يمكننا اعتبار اللعب « غريزة » بالمعنى الذى يقصده أصحاب نظرية الغرائز . وتبدو حجتنا أقوى فى لعب الانسان حيث نجد النشاط منوعا ، بخلاف النشاط الغريزى فاننا نجده أميل الى التحديد . ونجد أن الانفعال الغالب فى حالات اللعب هو انفعال السرور . أما اذا ظهر انفعال مخصص حاد كانفعال الغضب أو الخوف فانه غالبا ما يفسد جو اللعب . ويمكننا أن نعتبر اللعب مسرحا تظهر عليه تعبيرات الدوافع الفطرية وغير الفطرية المختلفة . أما اعتباره « غريزة » بالمعنى المحدد فهذا ما لا نوافق عليه .

نظرية الطاقة الزائدة :

ومن بين النظريات التى ظهرت فى أواخر القرن الماضى ، نظرية تنسب الى «سبنسر» و«شلر» مؤداها أن وظيفة اللعب هى التخلص من الطاقة الزائدة، بمعنى ان الحيوان اذا توفرت لديه طاقة تزيد على ما يحتاجه منها للعمل الجدى ، فانه يستعمل هذه الطاقة فى اللعب . واللعب بناء على هذا الرأى ليس الا وسيلة للتخلص من هذه الطاقة الزائدة . ومن الأدلة التى يسوقها أصحاب هذا الرأى أن الأطفال يلعبون أكثر من الكبار ، لأن الأطفال يجدون من يرعاهم ويغذيهم ، فلديهم طاقة زائدة يصرفونها فى اللعب . ولكن لاحظ أن الكبار يميلون للعب ، وأن اللعب ليس قاصرا على من يستمتعون بالراحة وانما يقوم به المتعبون أحيانا ، اذ يجدون فيه سبيلا الى الشعور بالراحة . كما أنه ليس من المعقول أن تهيىء الطبيعة الكائنات الحية باستعدادات من شأنها مجرد التخلص من طاقة يمكن أن تكون ذات فائدة للكائن الحى . ولا يعقل أن تكون الطبيعة عابثة الى هذا الحد . فلا بد للعب من وظيفة حيوية لصالح الكائن الحى الذى يلعب . وتنقلنا هذه الاعتراضات الى النظرية التالية .

النظرية الاعدادية :

وصاحب هذه النظرية هو « كارل جروس »،وقد نشرها فى كتابيه اللذين ظهرا فى أواخر القرن الماضى . ويرى أن اللعب له وظيفة «بيولوجية» هامة للكائن الحى . فاللعب فى نظره اعداد للعمل الجدى الذى يقوم به الكائن الحى فى المستقبل . ومن أدلته على ذلك أن صغار الحملان تتناطح فى لعبها ، وبذلك تقوم بالتمرن على العمل الذى تقوم به فى المستقبل بصورة جدية . كذلك نجد القطط يطارد بعضها بعضا فى أثناء اللعب ، وتقوم بحركات تشبه تلك التى تقوم بها فى المستقبل فى اصطياد الفريسة اصطيادا جديا . ونجد مثل هذا فى لعب الكلاب وسائر الحيوانات الراقية . فالحيوان عندما يلعب

متناطحا أو صائدا ، ثم يكبر فيقوم بالتناطح والصيد بصورة جدية مثله كمثل فرقة التمثيل التى تقوم بالتمرن على الأدوار بصورة شبيهة بما تقوم به بعد ذلك . والذى يحدث عادة هو أننا لا نجد حركات الممثلين وأعمالهم فى أثناء التمرين مطابقة تمام المطابقة لها فى أثناء التمثيل الجدى ، ففى التمثيل الجدى نجد العناية والاتقان واليقظة ، وهذه لا نجدها فى التمرين ، وان وجدناها فانها تكون بنسب صغيرة ، كذلك نجد أن الكلاب التى تتشاجر تشاجرا جديا تقوم بحركاتها فى يقظة واتقان ، ويكون الحيوان اذ ذاك مشدودا متوتر العضلات . وهذه المظاهر نجدها بنسب قليلة فى الكلاب عندما تتشاجر بصورة غير جدية فى حالات اللعب .

ومن الأدلة على صحة هذه النظرية أن اللعب يأخذ شكلا خاصا عند كل نوع من أنواع الحيوان . فالشكل الذى يتخذه لعب القط يختلف عن الشكل الذى يتخذه لعب الحمل أو الكلب ؛ فلو أن اللعب مجرد تخلص من الطاقة الزائدة ، لخرجت حركاته فى صورة عشوائية ، ولما كان هناك ما يدعو لاتخاذ حركات اللعب أشكالا خاصة تختلف من كائن حى لآخر .

واستند « جروس » الى دليل آخر ؛ هو أن اللعب من خصائص الحيوان الراقى . فمن المعلوم أن الكائنات الحية غير الراقية كالحشرات والزواحف مثلا لا تلعب . أما الحيوانات الراقية كالقطط والكلاب والقردة فانها تلعب . ومعروف كذلك أن الفترة التى يكثر فيها اللعب هى فترة الطفولة ، ومعروف أن الطفولة هى المرحلة التى تمر فيها بعض الكائنات الحية قبل أن تتمكن من بلوغ المستوى الذى تؤدى فيه وظائفها الحيوية بصورة كاملة . ونلاحظ أن مدة الطفولة عند الكائن الحى تطول كلما ارتفعنا فى سلم التطور . فالكائنات الحية الدنيئة تولد بالغة مكتملة النمو تقريبا ، ونلاحظ أيضا أنها تولد قادرة على العيش مستقلة عن كبارها . ومعنى هذه المقدرة أن قوالب السلوك تكون لديها جامدة مكتملة النمو ؛ فهى

تبحث عن غذائها وتتوالد وتتكاثر فى زمن وجيز . وما دامت قادرة على أداء وظائفها البيولوجية بعد ولادتها ، مباشرة ، فلا حاجة بها لفترة تنضج فيها قوالب السلوك. أما الحيوان الراقى فانه يولد على جانب كبير من الضعف والمرونة والاعتماد على كباره الى أن ينضج . ويحتاج فى هذه الفترة السابقة للنضج الى بعض التمرن على قوالب السلوك التى تفيده عند نضجه . ويحدث هذا التمرن عادة عن طريق اللعب . فاللعب فى نظر «جروس» هو أسلوب الطبيعة للتمرن على العمل الجدى الذى يتطلبه مستقبل الكائن الحى . وقد ذكرنا فيما سبق — فى الفرق بين الاستعدادات الفطرية عند الحيوان الراقى بوجه عام والانسان بوجه خاص ، وبينها عند الحيوان غير الراقى — أن قوالب السلوك عند الحيوان غير الراقى جامدة قليلة المرونة وبعبارة أخرى مكتملة النمو . أما قوالب السلوك فى الحيوان الراقى فانها قليلة التحدد شديدة المرونة ، وتحتاج الى فترة قبل أن تتمكن من اتخاذ شكل محدد يساعدها على أداء وظيفتها بصورة كاملة . فالقط الصغير مثلا لا يمكنه أن يصيد فأرا ، ولكنه يلعب كما لو كان يمثل دور الصائد .

وقد وصف بعض المربين اللعب بأنه أسلوب الطبيعة للتعلم ، وقد لخص « رس[1] » ما تقدم فى العبارة الآتية « الحاجة الى التعلم تنشأ عن العجز عند الميلاد ، وامكانيته تنشأ عن مرونة « الغرائز» ، ووقته هو الفترة التى قبل النضج وطريقته هى « اللعب » .

وقد نجد بعض الصعوبة فى تطبيق هذه النظرية على لعب الانسان،ذلك لأن لعب الطفل متنوع الى درجة كبيرة . فالطفل يجرى،ويتسلق،ويتزحلق ، ويتناول الأشياء ، ويقذفها ، ويعضها ، ويلعب ألعابا فردية وجمعية مختلفة الأنواع . ولكن اذا تذكرنا أن حياة الانسان متنوعة تذكرنا كذلك أن الاعداد لها لابد أن يكون على صور متنوعة . ومع هذا فاننا نجد الأطفال

---

(١) Ross : Groundwork of Educational Psychology p.103.

فى مختلف الأزمنة ومختلف الأمكنة تتشابه ألعابهم الى حد بعيد ، فاللعب بالكرة ، ولعبة الاستخفاء[1] ، ولعب البلى ، والحجلة ، ونط الحبل ؛ كل هذه تكاد توجد بصورة واحدة فى مختلف البلاد ، وهى قائمة معروفة من زمن بعيد .

والوظيفة التى يؤديها لعب الأطفال ، أنه يكسب الطفل مهارة جسمية مختلفة. فبالقفز، والجرى، والتسلق ، والتزحلق ، والتسابق، واصابة الهدف ؛ وما يشبه ذلك يكتسب الطفل قدرات حركية على جانب كبير من الأهمية وكذلك نجد أن اللعب بالماء والرمل والطين والأدوات والآلات — الحادة منها وغير الحادة — يمكن الطفل من اكتساب معرفة دقيقة بخصائص الأشياء التى تحيط به . وبهذا لا يقتصر اللعب فى فائدته على كسب المهارة الحركية ، وانما يمتد الى كسب القدرة على فهم العالم المادى . وفى اللعب الجمعى يكسب الطفل القدرة على التعامل مع زملائه ، ويتعلم الأخذ والعطاء ، ويكتسب القدرة على فهمهم وعلى فهم نفسه . ونجد فوق ذلك أن اللعب يعطى فرصة طيبة لشعور الطفل بمقدرته . فباللعب يعرف الطفل قدرته على لمس الأشياء الحارة والباردة ، وعلى حمل الأشياء الثقيلة والخفيفة ، وعلى تحريك الأشياء الساكنة ، وايقاف الاشياء المتحركة ، وعلى النجاح فى التعامل مع بعض الرفاق دون البعض الآخر وغير ذلك . وخلاصة هذا أن لعب الانسان يؤدى الى كسب المهارة ، وكسب الفهم ، وكسب الشعور بالقدرة . وهذه النواحى الثلاث هى أسس النمو الصحيح . ومن هذا نرى أن نظرية « كارل جروس » تنطبق على الانسان كما تنطبق على الحيوان ، اذا تذكرنا أن حياة الانسان غنية بعناصرها وتفاعلاتها وحاجاتها اذا قيست بحياة الحيوان .

---

(١) Hide and seek .

النظرية التلخيصية :

وهناك نظرية أخرى لا ترى أن اللعب يقوم بوظيفة تحقق غرضا مستقبلا هو الاعداد للعمل الجدى كما تنص النظرية الاعـدادية ، وانما ترى أن اللعب تلخيص للماضى . فترى أن ألعاب القذف والصيد والتسلق وجمع الأشياء وغير ذلك من الألعاب الكثيرة الفردية ، والجمعية غير المنتظمة ، ثم الجمعية المنتظمة التى تظهر بقوة فى دور المراهقة ، والتى يتبارى فيها فريق ضد فريق وينظم كل منهما نفسه تنظيما داخليا ؛ فلكل فرد مكانه ووظيفته فى اللعب ، ترى هذه النظرية أن كل هذه الألعاب تمثل أدوارا مختلفة فى تاريخ الانسان . فقد كان الانسان عند أول ظهوره قبل التحضر يعيش معرضـا لعوادى الحيوان والطبيعة . وكان غالبا يعيش عيشة أقرب الى عيشة الحيوان فقد كان يسكن الغابة ويتعرض لأخطارها . وكان عليه أن يصيد ويتسلق وأن يطارد فريسته وأن تطارده الأسود أحيانا . وكان عليه أن يكون بارعا فى القبض والقنص والعض والجرى والتسلق والاختفاء وما الى ذلك . ويغلب أن يكون الانسان قد مر بمراحل عدة قبل أن يستقر فى الأرض ويزرعها ويحرثها . ويتجمع فيها جماعات يعاون بعضها بعضا ، وتقتتل جمـاعة ضـد جماعة أخرى للدفاع أو الاعتداء . وكان ما كان من تطور هـذه الجماعات عددا ومدنية وتنظيما وتقدما ، الى أن وصل الانسان الى ما وصل اليه الآن من الحضارة والترقى . وتقول النظرية التى نحن بصددها : ان الانسان من ميلاده الى اكتمال نضجه يميل الى المرور بالأدوار التى مر بها تطور الحضارة البشرية منذ ظهور الانسان الى الآن . ويمر الانسان فى هذه الأدوار مرورا تلخيصيا عاما . ولذلك نجده يميل خلال السنة الأولى الى أن تلاعبه أمه بأن تخبىء نفسها ثم تظهر ، وأن تكرر هذا مرات عديدة ، ويميل هو الى أن يفعل ذلك أيضا . وعندما يمشى ويجرى تجده يميل الى المطاردة والتسلق والصيد وما الى ذلك ، مما يمثل حياة الانسان الأول عندما يعيش مع بقية الحيوان فى الغابات . وهكذا نجد الطفل ينتقل من ألعابه الفردية الى

اللعب مع رفاقه لعبا غير منتظم يتزعم فيه أحد الأطفال ثم يتزعم آخر ، ويصادق بعضهم بعضا ، ثم سرعان ما تنتهى هذه الصداقة لتحل محلها العداوة ، وهكذا مما يمثل حياة الجماعات البدائية التى تمثل المرحلة التالية لمرحلة انسان الغاب . وبعد ذلك نجد الأطفال يميلون الى الألعاب الجمعية المنتظمة التى يشيع فيها ولاء الفرد لجماعته ، والتى تشبه فى روحها حياة الجماعة المنتظمة الراقية التى نجدها فى الوقت الحاضر .

وترى هذه النظرية أن من ضرورات النمو النفسى السوى ، ان يمر الانسان بهذه الأدوار ، ويخرج منها حتى يكتمل نموه. ويرى «ستانلى هول» صاحب هذه النظرية أن الضفدعة لا تصبح ضفدعة مكتملة النمو الا بعد أن تمر فى مرحلة « أبى ذنيبة » ولا بد « لأبى ذنيبة » من ذيل طويل ، ولا بد لهذا الذيل من أن يقضى فترته ثم يختفى قبل أن يصبح الحيوان ضفدعة مكتملة النمو ، كذلك الرجل المتمدن المهذب المثقف الذى يتصف بالوقار والاتزان ، لا بد له أن يمر بمرحلة يتسلق فيها ويتأرجح ويطارد ويعض ويقتنص وغير ذلك ، قبل أن يصبح رجلا محترما . وقد أفاد «ستانلى هول» فى نظريته من دراسته العميقة لعلم « البيولوجيا » وللتطور بنوع خاص فقد كان من أوائل علماء النفس الذين قفزوا بالعلم على أساس ما أفادوا من نظرية التطور .

ولكن يلاحظ أن هذه النظرية امتداد لنظرية أخرى وهى النظرية التخليصية فى «البيولوجيا» ، وهذه النظرية تقول : ان جنين الكائن الحى يلخص مراحل التطور السابقة للمرحلة التى فيها نوعه ، وأول من صاغ هذه النظرية هو « فون باير Von Baer » فى أوائل القرن الماضى . حيث وضع فى أوعية مختلفة أجنة لحيوانات مختلفة ، ونسى أن يلصق بكل وعاء اسم نوع الجنين ، وأراد بعد مدة أن يحدد نوع كل جنين فتعذر عليه ذلك وعبر عن صعوبته بقوله : « انى غير قادر على الحكم على أنواع هذه

الأجنة ، فقد تكون أجنة طيور أو سحالى أو ثدييات ، فالشبه بينها يكاد يكون تاما » . وقد أدت هذه الملاحظة الى دراسات واسعة النطاق على جنين الانسان[1] .

ومن بين ملاحظات البـاحثين أن جنين الانسـان يشبه فى مرحلة من المراحل تكوين الأسماك ، فالقلب لاينقسم الى نصفين أيمن وأيسر ، وانما يتكون من مجموعة واحدة من الفجوات تقوم بتوزيع الدم على أجزاء الجنين ، وكذلك لوحظ أنه بجانب الرقبة عند الجنين الانسانى توجد فتحات تشبه خياشيم الأسماك وعند اكتمال النمو تظهر فى موضعها الغدد الدرقية وجاراتها ، وكذلك يشبه تنظيم الأوعية الدموية والأعصاب تنظيمها عنـد الأسماك . وليس معنى هذا أن الجنين يحمل خياشيم ، ولكن الأمر مجرد تشابه بين هذا الجنين فى مراحله الأولى ، وسائر الكائنات التى تأتى قبله فى سلم التطور . ويتناول التشابه كثيرا من النواحى الأخرى كامتداد العمود الفقرى ووجود ما يشبه الذيل لدى الجنين الانسانى .

ولكى يميز « ستانلى » بين النظرية التلخيصية التى تتناول أعضـاء جسم الكائن الحى والنظرية التلخيصية الأخـرى التى تتنـاول ألعـاب الانسان وأوجه نشاطه سمى النظرية الأخيرة باسم آخر وهو : « نظرية تلخيص الحضارة » Culture-epoch theory

ويؤخذ على نظرية «ستانلى هول» نضوب أدلتها وكونها مجرد امتداد لنظرية أخرى ؛ أدلتها على جانب كبير من الثبوت ، فالمقارنة بين الجنين فى مراحله المختلفة ، والحيوان فى مراحـل تطوره المختلفة ، مقـارنة مبنية على الملاحظة العلميـة لكائنات موجودة بالفعـل ، أما الموازنة بين أنواع نشـاط الأطفال من بعـد ميلادهم الى اكتمال نضجهم ، وأنواع النشاط

[1] راجع كتاب قصة الحيـاة فى جميع الأحياء للدكتور « طنطاوى » والدكتور « القوصى » .

التى قام بها الانسان البائد ، فانها تقوم على كثير من التخمين . وقد يقال : ان درجات التحضر الموجودة بين مختلف سكان الأرض فى الوقت الحاضر تمثل ما مرت به حضارات الانسان البائد ؛ ولكن ليس هناك ما يضمن لنا صحة هذا الرأى ، يضاف الى هذا أن مجرد التلخيص ليس أساسا من أسس علم الحياة ، ولكن العضو بشكله الخاص يؤدى وظيفة معينة فى مرحلة معينة من مراحل النمو ، فاذا تم هذا النمو فقد يكون من اللازم أن يتغير شكل العضو حتى يلائم الوظيفة الجديدة . كذلك يؤدى نوع معين من أنواع اللعب وظيفة معينة فى مرحلة النمو التى يكون فيها . فاذا تم هذا النمو ولم يعد بالانسان حاجة الى هذا النوع من اللعب[1] انتقل منه الى نشاط آخر ، فنلاحظ مثلا أن لعب الطفل فى المرحلة الأولى فى أغلبه لعب فردى يترتب عليه فهمه لخصائص العالم المحيط به ، فيفهم الفروق بين الأشياء الصلبة والمرنة ، والجامدة والسائلة ، والحارة والباردة ، وغير ذلك من الخصائص . أما فى دور المراهقة فاننا نجد الناشىء يميل عادة الى الألعاب الجمعية التى تعينه على كسب القدرة على التعامل الاجتماعى الناجح . فنوع اللعب فى مرحلة ما يؤدى وظيفته فى هذه المرحلة ، فاذا تم له ذلك فان الناشىء يميل الى الانصراف عنه الى نوع آخر من اللعب يتفق ومرحلة النمو الجديدة . معنى هذا أن أهمية اللعب أهمية اعدادية أكثر منها تلخيصية ، ويلاحظ كذلك ان نوع اللعب الذى ينتمى الى مرحلة ما ، قد نجده بصورة أخرى فى مرحلة متأخرة . فالصيد مثلا نجده منتشرا بين البالغين كما نجده بين الأطفال . كذلك اللعب بالمواد المرنة كالطين والعجين والصلصال والاستمتاع بتشكيلها فى صور مختلفة ، يستمر فى كثير من الأحيان على شكل هواية أو فن جميل فى المراحل المتأخرة . هذا التداخل الواضح بين أنواع النشاط فى مختلف المراحل ، يؤدى الى صعوبة تصور

(١) راجع الباب الثانى من هذا الكتاب .

الموازنة الدقيقة بين ألعاب المراحل المختلفة ومراحل تطور الحضارة البشرية، خصوصا اذا علمنا أن تحديد مراحل الحضارة ما زال فى دور التخمين .

وعندما ظهرت هذه النظرية فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى ، كان لها أثر أكبر مما تستحق فى تفكير القائمين بشئون التربية ، فقد أراد هؤلاء أن يرسموا مناهج التعليم للأعمار المختلفة بحيث تتفق وما يقابلها من مراحل تطور الحضارة . فحاول بعض المربين أن يجعل تدريس الحساب فى المراحل الأولى متفقا مع الطريقة التى يظن أن الانسان الأول قد اتبعها فى عد حاجاته وممتلكاته . والخطأ فى هذا واضح ؛ اذ أنه يراد عمل منهج على أسس تخمينية . ولم يمض وقت طويل حتى اكتشف المربون عقم هذه النظرية من الناحية التطبيقية ، فتخلوا عن جعلها أساس عملهم .

النظرية التنفيسية :

وهناك نظرية تشبه الى حدما نظرية الطاقة الزائدة ، فى كونها ترى أن اللعب منفذ للتنفيس عن الانفعالات المحبوسة . فللطفل شخصيته الانفعالية التى لا يمكنه عادة أن يستفرغ نزعاتها المكبوتة بالطرق الطبيعية غير المهذبة فاذا ضربه والده وغضب لهذا فليس من السهل عليه عادة أن يعبر عن ذلك تعبيرا يتفق مع حدة غضبه . ولكنه يجد فى اللعب فرصة لتمثيل الغضب ، فتستفرغ بعض انفعالاته المحبوسة ، ولهذه النظرية تاريخ قديم ، فهى ترجع الى عهد «أرسطو» الذى يرى أن التمثيليات المحزنة وظيفتها معاونة المتفرجين على تفريغ أحزانهم التى لا يمكنهم تصريفها فى الحياة العادية . كذلك اللعب يعطى مجالا لتفريغ الانفعالات وتطهير الانسان منها . ومن الواضح أن هذه النظرية غير كافية لتفسير اللعب ، فلا يمكن أن تكون وظيفة اللعب قاصرة على مجرد التنفس ، ولا بد أن يكون له وظائف أخرى

النظرية التحليلية أو التعويضية :

ومن الوظائف الأساسية للعب أنه يهيىء مجالا لاعادة الاتزان الى حياة الأطفال . فالطفل الذى يضربه أبوه لا يمكنه عادة أن يقابل الضرب بمثله ، وطبيعى أن يشعر بكثير من الغيظ بسبب عدم قدرته على الانتقام لنفسه . ونعتبر فى علم النفس أن الشعور بالغيظ اختلال فى الحياة الانفعالية . ولكى يعود اليها الاتزان نجد الطفل يلعب مع زملائه ، ويجد الفرصة فى هذا لتمثيل الضرب والغيظ وما الى ذلك . فقد يلعب دور الوالد ويضرب من يلعبون معه دور الأبناء . وقد يلعب دور المدرس ويضرب من يلعبون دور التلاميذ . ومثال آخر أن بنتا فى سن الثانية كانت تشكو من عينيها ، وكان والدها يعالجها بالقطرة بالرغم من تضايقها وتألمها من ذلك . وكانت لها دمية صغيرة فكانت تتناولها وتفعل بها ما كان يفعله والدها ، وتقول لها نفس العبارات ، ثم تمثل مع دميتها وضع القطرة فى عينيها . ولعب الطفلة فى هذه الحالة لعب تعويضى يعيد اليها الاتزان ، وليس مجرد تنفيس عن انفعال محبوس ، وانما هو لعب بأسلوب خاص يؤدى وظيفة معينة ، وهى أن ما لا يتمكن الطفل من تحقيقه فى الواقع يحققه فى صورة لعب . فليس من الميسور أن تمسك الطفلة بوالدها وتضع القطرة فى عينيه ، وانما يتيسر لها هذا فى مجال اللعب . ومثال آخر لطفلة فى سن الثالثة كان الفرق فى العمر بينها وبين من سبقها أكثر من عشرة أعوام . وكان والداها على درجة من الكبر جعلتهما قليلى الاشتراك معها فى اللعب . وكان يحرمان عليها اللعب مع أولاد الجيران وفارق السن بينها وبين اخوتها كان يحرمها من فرصة اللعب معهم . فكانت تذهب الى حجرة المطبخ ، وتتناول الزجاجات والعلب ، وتضعها فى صف ثم تخاطبها واحدة واحدة ، وتعطى كلا منها اسما ، وتعاملها كما لو كانت رفيقات لها يشاركنها فى اللعب . يلاحظ هنا أن ما لم تتمكن الطفلة من تحقيقه فى حياة الواقع ، قامت بتحقيقه تحقيقا خياليا عن طريق اللعب . وبهذا قامت الطفلة بتعويض ما فى حياتها من نقص .

وقد ظهرت هذه النظرية فى ميدان التحليل النفسى ، وهى تستغل لتشخيص مشكلات الأطفال ومعالجتها . وتفسر على ضوء هذه النظرية الألعاب الايهامية التى يقوم بها الأطفال عندما يمثل الطفل فارسا أو طبيبا أو مدرسا أو غير ذلك . وتفسر كذلك شغف الأطفال بالقصص الخرافية . وشغف الطلاب بالكتابة عن مدرسيهم فى مجلتهم أو بتمثيل بعض شخصيات المدرسة على مسرحها .

اللعب الايهامى والقصة :

وهناك نوع من اللعب يكون شديد التشبع بعنصر الخيال . فالطفل الذى يمتطى عصاه جوادا ، ويحذر الناس من اعتراض طريقه ، يلعب لعبا ايهاميا يوهم نفسه فيه انه فارس . كذلك يلعب الطفل على أنه قطار ، أو أنه سائق ترام ، أو يلعب جزارا أو طبيبا ، ويقوم الخيال بتحقيق النزعة الى السيطرة التى لا يسهل على الطفل تحقيقها فى حياة الواقع وموقف الطفل من اللعب الايهامى يشبه موقفه عند الاستمتاع بالقصة الخرافية . فتجد فى القصة أن ولدا صغيرا قابل ماردا جبارا ، ومع ذلك تغلب عليه بالحيلة اللطيفة . عندما يستمع الطفل لقصة كهذه يطابق بين نفسه وبين بطل القصة ، ويطابق بين المارد الجبار وأصحاب السلطة عليه . ومن بين أصحاب السلطة والده ، فالوالد يتحكم فى الطفل ، والطفل يتضايق من هذا ولكنه يسر عندما يتغلب زميله بطل القصة على شبيه والده المارد الجبار . ونجد فى قصص الأطفال غولا يوصف عادة بالفظاظة والقوة ، ويكون كريها قبيحا . والغول فى القصة تمثيل للوالد أو لجانب منه ؛ هو جانب الجبروت والقوة والضبط والكبت وما الى ذلك . ومن بين قصص الأطفال ، نجد قصة فيها أخوة ثلاثة يخرجون للبحث عن خاتم سحرى . فيضل الأكبر طريقه ويحدث للثانى شىء يشبه ما حدث للأول ، وأما الثالث ، فانه يخاطر ويقطع القفار والبحار على أن يفوز بطلبته ، وتكون سببا فى خير كثير ،

وهذا الثالث هو أصغر الاخوة . والطفل الأصغر يكون فى العادة مضطهدا من اخوته الكبار ، لأنه يفوز من عطف والديه بقسط أكبر مما يفوزون به ، فيتألبون عليه ويضايقونه ، ولكن اذا شكاهم لوالديه فقد يستمعان للشكوى مرات ، ثم يضيقان بكثرة شكواه فيصدانه بعض الشيء . ويزيد تضايقه فيجد فى ألعابه ، أو فى أحلام اليقظة ، أو احلام النوم ، او الاستماع لقصة تشبه تلك التى ذكرناها ، سلواه وعزاءه ، اذ يرى أن الطفل الأصغر برغم ما يقابله فى حياته الواقعة من صعاب ، قد يأمل فى خير كثير . كذلك زوجة الأب فى القصة ، نجدها توصف وصفا منفرا ، ونجد أن سوء معاملتها لأبناء زوجها تنتهى آخر الأمر بانتصارهم عليها ، وتسوء عاقبتها . ويجد كل طفل فى أمه جانبا من أوصاف زوجة الأب التى ترد عادة فى القصة . اذ أنه يرى فيها أحيانا تحيزا لاخوته دونه . وبعبارة أخرى يرى أنها تعامل اخوته كما لو كانوا أولادها ، وأما هو فانه يرى أنها تعامله كما لو كان لأم أخرى . ويجد الطفل عند استماعه الى القصة متعة فى المطابقة بين نفسه وبطل القصة ، وكذلك فى المطابقة بين بعض جوانب أمه وبطلة القصة . وفى قصة «سندرلا» متعة لكل طفل . فقد لقيت ظلما كبيرا على يد أختيها ، وعلى يد زوجة أبيها ، بالرغم مما كانت عليه من جمال رائع . ولكن القصة رفعتها فأرسلت اليها الساحرة التى دبرت لها الذهاب سرا الى قصر الأمير لحضور حفلاته . وكان عليها أن تعود قبل منتصف الليل . وفى احدى الليالى انتصف عليها الليل فى القصر قبل أن تعود ، فأسرعت هاربة ، وسقط حذاؤها . فلما وجد الحذاء فى القصر طلب الأمير صاحبته لكى يتزوج بها . فلما وصلوا بالحذاء الى منزلها ، وجد أنه لا يناسب حجم أقدام أختيها . فأصر رجال القصر على قياسه على أقدام الأخت الثالثة «سندرلا»،فأنكرت الأختان ذلك اذ أن «سندرلا» لا تخرج الى حفلات القصر . وانتهى الأمر بزواج الأمير بـ «سندرلا» وكان هذا انتصارا كبيرا لها بعد عيش مليء بالذل والظلم . وكل فتاة تشعر بتحامل أخواتها عليها ، تجدلذةكبيرةفى الاستمتاع الى قصة

«سندرلا» . وفى القصة نواح كثيرة على جانب كبير من الامتاع ، ففيها الحيل والمفاجآت ، وسرعة توالى الحوادث وارتباطها بعضها ببعض مما يجعلها محببة الى الأطفال .

والقصـــة تشبه الحلم كما قلنـــا ، وتشبه اللعب الايهامى . ففى القصة مجال لاعادة الاتزان الى حياة الأطفال الذين يجدون فى كل قصة شخصيات تشبه من قريب أو من بعيد الشخصيات التى يقابلونها فى الحياة ، والتى يضطرون للتعامل معها . وما ينطبق على قصص الأطفال ينطبق على الأدب الذى يستمتع به الكبار . وسر خلود هذا الأدب أنه يعبر تعبيرا صادقا عن القدر المشترك بين الناس من الحياة الانفعالية الأولية . فنجد فى «هاملت» غدر الأخ بأخيه حبا فى الملك . ونجد صورة حية للرغبة فى الانتقام فى ظروف تؤدى الى التردد الشديد . ونجاح «شيكسبير» يرجع الى انتقائه للمواقف التى تبرز الغدر والانتقام والتردد بأوضح صورة معروفة . كذلك «ماكبث» فقد كان مثال الضعف فى يد زوجته التى كانت تتوق الى الوصول الى الملك، فدفعت بزوجها الى قتل الملك الذى كان ضيفا عنده فى قصره ، وكان يمت له بصلة القرابة فى نفس الوقت ، ولكن « ماكبث » تحت التأثير البالغ لزوجته، ارتكب أشنع جريمة يمكن أن يرتكبها انسان . ثم عاش تحت وطأة تأنيب ضميره . وكل هذه الانفعالات كانت بارزة واضحة محدودة المعـــالم . ويجد كل انســـان فى خبرته ورود أمثال هـــذه الانفعالات بصورة مخففة غير محدودة . ويجد فى قراءته لـ « شيكسبير » فرصة لفهم كثير مما بنفسه منعكسا على حياة شخصيات القصة .

التكرار والتوقيت واللعب :

ويميل بعض المشتغلين بعـــلم النفس الى اعتبـــار الميل الى التكرار استعدادا فطريا عاما ؛ فتجد الطفل يقذف بالكرة ليتناولها ويقذف بها مرة أخرى وهكذا . وتجده ينطق بالعبارة ويكررها مرات عدة . وتجده يميل الى الرقص والقفز وغير ذلك من الحركات . وتجده يكرر الواحـــدة منها

مرات كثيرة . ويميل الأطفال فى هذا التكرار الى أن يكون به شيء من الانتظام ، فاذا قام الأطفال بنط الحبل تجدهم يقومون به كما لو كان على نغمات الموسيقى . ويذهبون أحيانا الى انشاد الأغانى فى أثناء لعب الكرة وفى أثناء معظم ألعابهم . والذين يميلون الى اعتبار التكرار المنتظم استعدادا فطريا عاما يستندون فى هذا الى أن الانتظام أمر طبيعى ، فالتنفس منتظم ، وكذلك دقات القلب وحركات الجرى والمشى . ويرون الانتظام كذلك فى الطبيعة ، فى الشروق والغروب ، وفى تعاقب الفصول ، وفى المد والجزر ، وفى حركات الأجرام السماوية ، وفى حركة أجزاء الذرة حول نواتها . ولكن يكفى أن نعلل الميل الى التكرار تعليلا نفسيا لنعرف مكانته من بقية الاستعدادات . فالطفل اذا سمع لفظا جديدا غريبا عليه ، واذا وجد بعض الصعوبة فى النطق به فانه يميل الى تكراره . وكلما تابع هذا ظهر نجاحه فى القدرة على النطق به . فالتكرار وسيلة للسيطرة على الأشياء وللشعور بالمقدرة على أداء الحركات . ونجد أن الطفل بعد أن يتمكن من القيام بحركة معينة فى لعب الكرة يواصل ممارستها ، ففى هذا اقناع له بمقدرته وفى هذا أمل بزيادة سيطرته على هذه الحركة . أما التوقيت فى التكرار فمن شأنه أن يسهل القيام بالحركات . وهذا التسهيل يجعل القيام بالحركات فيه شيء من المتعة . والشعور بالتسهيل ناشيء من أن التوقيت يعاون على تكوين وحدة من أشياء قد تبدو متناثرة خالية من الوحدة بغير التوقيت . ولهذا يميل العمال الى انشاد الأناشيد ، والتوفيق بين حركاتهم وهذه الأناشيد ؛ وبهذا يصير فى حركاتهم شعور بالسهولة ناشيء من تنظيمها على هيئة وحدة أو وحدات . ويلاحظ أن دخول التوقيت بهيئة شعر على القواعد النحوية ، جعل تكرارها وحفظها فى ألفية « ابن مالك » على جانب كبير من السهولة . وأدت سهولة الحفظ الى خروجه عما قصد اليه ، حتى ان كثيرا ممن حفظوا ألفية « ابن مالك » لم يحسنوا تطبيقها . يبدو من ذلك أن التكرار لا يقصد عادة لذاته ، وانما يتبع لأنه وسيلة لغايات أخرى ، وهى اتقان الحركات والمهارات ، وسهولة أدائها ، وكسب الثقة بالنفس ازاءها . فالمرء بتكراره عملا ما يؤكد لنفسه مقدرته على القيام به . ونظرا لكون التكرار

يظهر عادة فى أثناء اللعب ، ونظرا لكونه يظهر لتيسير النشاط واشباع السيطرة فاننا لا نميل الى اعتباره نزعة فطرية أساسية ، وان كان بعض المشتغلين بعلم النفس يختلفون مع هذا الاتجاه كما بينا .

توفيق بين نظريات اللعب :

أوردنا تفسيرات مختلفة للعب ، ووجدنا أن كل تفسير به جانب من الصواب . بل يمكننا أن نرى أن فى أغلب هذه النظريات ما يكمل بعضه البعض الآخر ؛ فنظرية الطاقة الزائدة تضع شرطا اذا توفر فان الكائن الحى يميل الى اللعب ، ولكنه ليس الشرط الوحيد ، وانما هو عامل يساعد على اللعب . ومع الاعتراف به نرى أن اللعب ليس مجرد تخلص من طاقة موجودة ، وانما يفاد من هذه الطاقة فى اعداد الكائن الحى للمستقبل . والكائن الحى عندما يلعب يعبر عن غرائزه التى يشترك فيها مع من سبقوه فى سلم التطور ، وبهذا يبدو كأنه يلخص نشاط الماضى ، ولكن هذا لا يدفعنا الى الأخذ بالنظرية التلخيصية كشرط من شروط النمو ؛ فالنمو يخضع لقوانين عامة تشترك فيها الأفراد والجماعات . فنجد فى نمو الفرد انتقالا يشبه الانتقال الذى يتبعه نمو الجماعة . وليس معنى هذا أن نمو الفرد متأثر بالنمو السابق للجماعة البشرية ، ولكن كل ما يعنيه أن النمو فى كل من الحالتين يخضع لقوانين تكاد تكون واحدة ، وهى نفس القوانين التى يتبعها التطور البيولوجى . فعملية النمو فى كل من هذه الحالات فيها انتقال من العموم الى التخصص ، ومن حالة عدم التمايز الى التمايز ، ومع حدوث هذا الانتقال يحدث التكامل والتماسك (١) .

وكذلك اذا نظرنا الى النظريتين التنفيسية والتحليلية ، فاننا نجدهما تشتركان مع بعض النظريات السابقة . فبين النظرية التنفسية ونظرية الطاقة الزائدة شبه كبير . غير أن الأمر — كما قلنا — ليس مجرد تنفيس عن انفعالات مكبوتة ، وانما هو نشاط يؤدى الى اعادة الاتزان فى حياة

---

(١) « Evolution is change from an indefinite, incoherent homogeneity to a definite coherent heterogeneity, through continuous integration and differentiation ». Spencer as quoted by Flugel in A Hundred Years of Psychology.

الطفل ويمكننا من هذا أن نرى أن الوظيفة الأساسية للعب هى الوظيفة الاعدادية . أما الوظائف الأخرى فانها وظائف ثانوية .

وهناك رأى يتجه الى التوسع فى معنى « الوظيفة الاعدادية » فيرى أن لعب الكبار اعدادى ، بمعنى أنه يعد الشخص للقيام بالعمل الجدى بعد فترة الاسترخاء التى يكون قد قضاها فى أثناء اللعب . وللعب الكبار ميزة كبرى ، اذ أنه يخرج الانسان من حياته الجدية المليئة بالتوتر الى حياة حرة تتصف بالاسترخاء . ولا يشترط للاسترخاء أن يقوم الشخص بعمل يخالف تماما ما يعمله فى الحياة الجدية. فالذى يعمل عملا عقليا قد يجد الراحة فى لعب الشطرنج أو الورق . والذى يعمل عملا جسميا قد يجد الراحة فى الرقص أو لعب الكرة ولكن يحسن أن يكون نشاط اللعب مخالفا لنشاط الجد ، حتى يكون التغيير أكبر ما يمكن ، وحتى تأخذ كل الأعضاء فرصة القيام بوظائفها .

اللعب والتربية :

سبق ان بينا أن اللعب هو أسلوب الطبيعة فى التربية ، وهو وسيلة لاعداد الكائن الحى للعمل الجدى الذى يقوم به فى المستقبل . وقد شعر المربون بهذا قبل أن تتحدد فكرتهم عن اللعب على الصورة التى بيناها. فعندما نادى « روسو » بأن تترك الطفل للطبيعة ، وتبعه « فروبل » بانشاء رياض الأطفال وجعلها تقوم على اللعب ، وكان محور الفكرة أن اللعب فرصة طيبة لنشاط تعليمى منتج وقد قامت « منتسورى » باقامة بيوت الأطفال وهيأتها بأجهزتها . وعند قيام الأطفال باللعب فى هذه الأجهزة تتدرب حواسهم ويتعودون الانتقال من نشاط سهل الى نشاط أكثر تعقيدا ، ويقومون بهذا من تلقاء أنفسهم تحت ارشاد قليل . وقد هوجمت أجهزة « منتسورى » لصبغتها التحليلية ، فبعض هذه الأجهزة يمرن العين ، وبعضها يمرن الأذن ، وغير ذلك . وهوجمت كذلك لجفافها ، ولعل هذا الجفاف يرجع الى تلك الصبغة التحليلية ، وتذهب « منتسورى » الى تعليم القراءة والكتابة والعد عن طريق اللعب بأجهزة وضعت خصيصا لهذه الأغراض .

وقد ظهرت لتعليم النواحى اللغوية أساليب كثيرة تعتمد على روح اللعب ، فالانطلاق فى التعبير ، وحسن الالقاء وروعة الاخراج ، كل هذه تجىء عن طريق التمثيل ، وتتجه بعض المدارس الحديثة الى جعل التمثيل محور تعليم اللغات فيها . فيذهب التلاميذ الى المكتبة ويقرءون ما فيها من روايات تمثيلية ، ويوازنون بينها ويدرسون امكانيات اخراجها على مسرح المدرسة ، واسناد الأدوار المختلفة الى التلاميذ كل بحسب شخصيته ، مما يساعد على حسن دراسة التلاميذ لهذه الروايات ، ودقة تحليلهم لها ، والمفاضلة بينها ، ويساعد فوق هذا على فهم التلاميذ بعضهم لبعض ، اذ يناقشون صلاحية هذا للقيام بهذا الدور ، وعدم صلاحيته للقيام بدور آخر وهكذا . ونعلم كذلك ان من خير الوسائل لتعليم اللغة الغناء والأناشيد والقصص ، ويمكن الاستعانة بما يسمى الألعاب اللغوية فى اتقان صحة التعبير .

فهناك ألعاب يتسابق فيها التلاميذ ، فالذى يخطىء فى رفع الفاعل أو نصب المفعول يخرج من الصف مثلا ، والذى يصمد الى آخر الشوط يكون هو الفائز على أقرانه .

ويمكن تطبيق هذا وأمثاله على مختلف التراكيب التى تتمثل فيها القواعد اللغوية المختلفة ، وقد ضرب « كولدول كوك » [1] بسهم وافر فى استغلال اللعب فى تعليم اللغة .

وكل نوع من أنواع التعليم يقوم على اعطاء التلميذ قسطا من الحرية يشترك مع اللعب فى خاصة من أهم خواصه . ففى تعليم العلوم ، يمكن أن يقف التلميذ من مختلف المواد ومختلف الكائنات موقف الباحث المكتشف ، وبهذا يقف المدرس موقف الملاحظ الموجه ،فبدلا من أن يجلس جميع التلاميذ خاضعين لنظام المدرس ، منصتين لما يقول — وفى هذا من حالة التوتر قسط غير قليل — ينتحى المدرس جانبا ، ويترك للتلميذ بعض الحرية، مع الأدوات والأجهزة ، ليجربها ويستعملها ، تحت الارشاد الذى يكفى

(1) The Play Way

لعدم الحاق الخسارة بها ، ولعدم انطلاقه فيما يلحق به ضررا ، أو يبعده عن جادة الصواب ، فى ملاحظاته واستنتاجاته .

ومن أساليب التعليم التى تمتزج بخصائص روح اللعب اجراء التجارب ، ورؤية النماذج ، ومشاهدة الصور والأفلام السينمائية ، والقيام بعمليات التحنيط ونحت النماذج ، والقيام بالرحلات والمعسكرات وما الى ذلك .

ويلاحظ أن الطرق الحديثة المعروفة بطريقة المشروع ، وطريقة«دالتون»، ونظام الأسر تتميز كلها بطابع الحرية والتلقائية التى يتميز بها اللعب . ففى طريقة المشروع مثلا يكون لدى الفصل مشروع يراد القيام به ، ولكى يتم هذا يلزم وضع الخطة وتنفيذها ، ويصحب وضع الخطة وتنفيذها ، جمع البيانات وكسب المهارات العقلية واليدوية اللازمة . وللنجاح فى اتمام المشروع يتعاون التلاميذ بعضهم مع بعض ، وينظمون أنفسهم ، ويصبح لكل منهم عمل معين ، فاذا تم المشروع أحسوا بأنهم أدوا عملا ملموسا جهزوا له كل شىء بأنفسهم دون تدخل أو ضغط من جانب المدرس .

والدور الذى يلعبه المدرس يشبه الدور الذى يلعبه أى واحد من التلاميذ . فهو يشترك معهم فى التفكير ، وجمع المعلومات ، ووضع الخطة موضع التنفيذ وما الى ذلك . وبهذا يكون المشروع نشاطا تلقائيا حرا معبرا عن حاجات التلاميذ ورغباتهم ، ويتميز فوق هذا بشىء من التنظيم الذى يساعد على الانتقال من مستوى الى مستوى أعلى ، وبهذا يتم النمو .

ونجد التلقائية والحرية ، واضحتين فى طريقة « دالتون » فعلى التلميذ أن يختار مواد الدراسة التى تحقق الغرض النهائى الذى يرمى اليه . وعليه بعد أن يختارها اختيار الوقت الذى يلائمه لدراستها . وبهذا تحولت المدارس الى معامل دراسية يذهب اليها التلاميذ بعد ان كانت فصولا يحشر فيها التلاميذ ، ويذهب اليها المدرس بقليل من الأدوات ، ويتذرع بأساليب الضبط والتنظيم والتقييد التى تضمن له القاء درسه .

أما نظام الأسر فانه يقـــوم على تقسيم التلاميذ الى مجموعات ، لكل مجموعة منها حياتها الرياضية والاجتماعية ، ويقوم أفراد الأسرة بوضع برامجهم ، وتنفيذ هذه البرامج ، مما يترتب عليه توثيق العلاقات بينهم ، وتعليمهم الأخـــذ والعطاء ، وتقدير بعضهم بعضا ، وتحمل أخطاء الغير ، وتقديم واجباتهم نحو غيرهم على حقوقهم عند غيرهم ، وغـــير ذلك مما يترتب عليه تكوين الصفات الاجتماعية العاليه .

وثبت أن هذا يتم فى سهولة واتقان فى جو حر ، ولذا كان النشـــاط الرياضى ونشاط السمر والرحلات والمعسكرات ، من خير أنواع النشاط التى تقوم بها الأسر لتحقيق الأغراض التى يقصد اليها من تكوينها .

وعلى ضوء ما تقدم نرى أن المدرس يمكنه أن يستفيد من فهمه لخصائص اللعب فى اتجاهين .

أحدهما : أنه خـــير مجال لفهـــم نفسيات التلاميذ والوقوف عـــلى استعداداتهم .

والاتجاه الثانى : أنه خير وسيلة لتعليمهم وتربيتهم اجتماعيـــا وخلقيا .

المراجع

1. Isaacs, S. : The Nursery Years.
2. Lowenfeld, M. : Play in Childhood.
3. Mitchell & Mason : Theoty of Paly.
4. Norsworthy & Whiteley : Psychology of Childhood.
5. Nunn, P. : Education Its Data and First Principles.
6. Reaney : Place of Play in Education.
7. Sully : Children's Ways. Ch. II.
8. Thomson : Instinct, Intelligence and Character, Ch. IV.
9. Year-Book of Education. 1936. p. 313.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثالث عشر

نقد وتقدير لنظرية الغرائز

مقدمة :

عالجنا فى الفصول السابقة ما سميناه السلوك الفطرى ، وتكلمنا عما يحتمل أن يكون وراء هذا السلوك الفطرى من استعداد فطرى أو غريزى للقيام بهذا السلوك . وتجنبنا — قدر الامكان — استعمال كلمة « غريزة » لا لأن هذا مصطلح لا يجوز استعماله ، ولكن لأنه قد أسىء فهمه وأسىء استعماله . والذين أساءوا فهمه واستعماله هم من الذين يدافعون عن نظرية « الغرائز » ومن الذين يهاجمونها على حد سواء . ولكن اذا عرفنا أن الغريزة لا تخرج عن كونها صفة غريزية ، وأنها طبيعة أو صفة طبيعية صار مفهوم الكلمة مقبولا . فمن طبائع الانسان أو الحيوان أن يهرب من مواقف الخطر ، وعلى هذا نقول : ان الانسان عنده استعداد للهرب من مواقف الخطر ، واستعداده هذا طبيعى أو غريزى . وتلخيصا لهذا كله يقال : ان عنده غريزة الهرب ، أو الدافع للهرب اذا وجد نفسه فى موقف يتصف فى مجموعه بصفات معينة ونحن لا نرى أى مأخذ على هذا التعبير أو على غيره مما يشبهه .

ويتجه بعض علماء النفس الأمريكيين الى انكار هذه الفكرة على أساس ان الاستعداد المطلق للهرب مثلا أمر لا وجود له ، فهذا يهرب من حيوان ، وذاك يهرب من الحشرات ، وآخر يهرب من نقد الزملاء ، فكل امرىء له مخاوفه الخاصة . ولكن معنى هـذا — فى نظرنا — ان كل امرىء له « مخاوف » فالاستعداد للخوف أو الهرب موجود عند الناس جميعا ، وانما

تختلف موضوعاته أو تفاصيل مواقفه وأساليب التعبير عند الأفراد اختلافات شاسعة . مثل هذا كمثل أى مفهوم لأى لفظ عام فالكتاب مثلا مدرك عام وان كان كل كتاب يختلف عن كل كتاب آخر فى موضوعه وفى طباعته ونجد ان نسخ الطبعة الواحدة من الكتاب الواحد تختلف كل واحدة منها عن الأخرى فى درجة استعمالها ، أو فى ثمنها ، أو فى موضعها ، أو فيما يحدث لها ؛ ولكن هذا لا يمنعنا من التكلم عن « الكتاب » بصفة عامة (١) وحيث ان الخوف من « الصراصير » يختلف فى موضوعه ونشأته وطريقة التعبير عنه عند شخص ما عن الخوف من « سوء السمعة » عند شخص آخر فقد اتجه هؤلاء العلماء الأمريكيون المحدثون الى اعتبار أن البيئة هى كل شىء فى خلق هذه الاتجاهات ، ويتضح الأمر اذا تذكرنا ان هذا من بقايا آثار المدرسة السلوكية التى انتشرت أكثر ما انتشرت فى أمريكا . وفى هذا الموقف ما يشبه الرجوع الى الفكرة القديمة القائلة بأن الطفل يولد وعقله صفحة بيضاء ؛ وعلى هذا يمكن للمربى أن ينقش عليها ما يشاء .

وليس من المستحسن أن ندخل بعمق فى جدل بين مختلف الآراء ازاء نظرية مثل نظرية الغرائز ، لأن الدخول فى مثل هذا الجدل معناه ضرورة البدء بالالمام التام بمختلف وجهات النظر ، ثم الانتقال الى الموازنة بينها . ولكن بعض المحدثين من المشتغلين بعلم النفس بهرتهم اتجاهات المدارس الأمريكية ، فاخذوا بها لا لسبب الا لأنها ثورة على القديم وقد سبق أن ذكرنا ان ليس كل حديث صحيحا ، وليس كل قديم باطلا . فينبغى أن يكون التحيز لنظرية دون أخرى مبنيا على أساس الدرس . على أنه لا توجد نظرية غير قابلة للتعديل ؛ فالثبوت والجمود مضادان لطبيعة العلم .

الاستقلال الوظيفى للدوافع :

من أشد الهجمات التى وجهت الى نظرية الغرائز تلك التى قام بها « أولبورت » (٢) ؛ ذلك لأنها تقدم عددا من الغرائز ينسب اليه السلوك

(١) كذلك تشترك الحشرات والطيور والحيوانات والانسان فى حاسة الشم ولكنها تختلف فى الأجهزة الجسمية اللازمة للقيام بعملية الشم وحتى فى الانسان تختلف الأنوف اختلافات شاسعة .

(2) G. W. Allport : Personality : A Psychological Interpretation p.193.

الانسانى فى كل مراحله ، وتعتبر ان هـذه الغرائز هى مصادر السلوك ، ومنابع القوة ، وما الى ذلك . ويرى « أولبورت » ان هناك مبدأ آخر يجب أن يكمل المبدأ التتبعى (Generic) وهذا المبدأ هو « الاستقلال الوظيفى للدوافع » . « The Functional Autonomy of Motives »

وينص هذا المبدأ على أن دوافع الانسان البالغ وان كانت قد نمت من دوافع سابقة الا انها مستقلة عنهـا ، ويغـذى بعضها بعضا . ويشـبه « اولبورت » هذا المبدأ بما يحدث فى حياة النبات ، فالبذرة تنمو الى أن تصبح شجرة كاملة بجذورها وألبافها وأوراقها وثمرتها . واذا أردنا — فى نظره — أن نفهم حياة الشجرة من الناحية الوظيفية فاننا لا نعود الى بذرتها التى كانت موجودة من عشرين عاما مثلا ، وانما نفهمها على أن أجزاءها يغذى بعضها بعضا ، ويقوى بعضها بعضا بغض النظر عن البذرة . فالعلاقة بين الشجرة الحالية والبذرة القديمة فى نظر « اولبورت » علاقة تاريخية ، وليست علاقة وظيفية . فالحياة الوظيفية للشجرة مستقلة تماما عن حيـاة البذرة ، وهذا ما يسمى « بالاستقلال الوظيفى » . فالشخص عنده دافع للتدخين لأنه يحب التدخين . ومن الجائز أن يكون قد بدأ التدخين فى صغره للاستطلاع ، أو ليحس بأنه كبير مثل زملائه الذين يدخنون . ولكن الدافع للتدخين عند الشخص الكبير مستقل فى نظر « البورت » عن هذه الدوافع الأولى .

بهذا لا ينكر « اولبورت » الغرائز وانما يقلل من أهميتها فى تفسير سلوك البالغين . وبهذه الطريقة عينها يقلل كثيرا من أهمية التحليل النفسى ، ويراه مبالغا فى الرجوع بتصرفات الكبار الى حوادث الطفولة ودوافعها[1] ، ويرى ضرورة معالجة الدوافع الحالية فى ظروفها الحالية .

لا ينكر « اولبورت » ان الدوافع الفطرية تتحول الى دوافع جديدة ، والمعروف ان أصحاب نظريات الغرائز جميعا أكدوا ان « الغرائز » البشرية تتحول ، وتتعدل ، وتنمو عنها دوافع جـديدة سميت بـ « العواطف »

(١) G. W. Allport : Personality p.194.

و « الميول » و « العقد » .. وما الى ذلك . ومعروف كذلك أنهم نادوا بأن هذه التكوينات الجديدة يغذى بعضها بعضا ، ويتكامل بعضها مع بعضها الآخر . غير ان الذى يؤكده « اولبورت » هو ان هذه التكوينات الجديدة مستقلة استقلالا وظيفيا تاما عن الدوافع الفطرية الأولى .

هذه التكوينات تكون كذلك أحيانا ، ولكنها — فى نظرنا — لا تكون كذلك دائما . ولا أدل على ذلك من مكتشفات التحليل النفسى التى لا يمكن أن ينكرها — على الأقل — مشتغل بعلم النفس . ولكننا نعتقد أن « اولبورت » ينكرها لدافع شخصى لاشعورى ، وهى أنها لا تتفق ونظرياته على ان كل ما عمله « اولبورت » هو انه أطلق اسما جديدا على فكرة قامت على يد « وليم جيمس [1] » و « مكدوجل [2] » .

وليس معنى دفاعنا هذا أننا نريد أن نستبقى نظرية « الغرائز » بالصورة التى ظهرت عليها . فليس أضر بالمعرفة من موقف كهذا ؛ اذ أن معناه الاصرار على الجمود وعدم الرغبة فى التقدم . ولكن ليس معنى التجديد أو عدم الجمود اننا اما أن نرفض كل ما قال به عالم من العلماء مثل « مكدوجل » أو « ستوت » أو « فرويد » واما ان نقبله برمته . فليس لعالم من أئمة العلماء آراء صحيحة على اطلاقها . وليس لعالم من أئمة العلماء آراء خاطئة على اطلاقها .

فعلينا اذن أن نتأمل ما وصل اليه مختلف العلماء فنقبل جانبا من هذا وجانبا من ذاك ، ويكون رائدنا فى القبول أو الرفض هو الرجوع الى الأدلة وبهذا الموقف يكون لكل عالم من العلماء المحدثين شخصيته المفطومة من شخصيات الأئمة . وتقوم هذه الشخصية على انتقاء الآراء وتأليفها تأليفا يتفق مع ما وصل اليه من نضج وخبرة شخصية وتجريب ذاتى [3] .

(1) Transitoriness of Instinct : see William James' Principles of Psychology.

(2) See habits, sentiments, etc., in any book written by Mc Dougall.

(٣) اذا انتظرنا غير هذا من المحدثين ممن يشتغلون بعلم النفس فانهم سيصيرون نماذج متطابقة مصبوبة فى قالب واحد وبذلك لاتتكون شخصياتهم بصورة مستقلة ، وانما يظلون تابعين لغيرهم معتمدين عليهم دائما . وهناك احتمال آخر ، وهو أن يضل المحدثون طريقهم فى وسط خضم الحقائق =

ونحن هنا لا نريد أن ندافع عن شخص بعينه مثل « فرويد » أو « مكدوجل » ولا عن نظرية برمتها مثل نظرية « مكدوجل » أو « دريفر » فى الغرائز . ومفهوم الغريزة عندى ليس مطابقا تمام المطابقة لمفهوم الغريزة عند عالم بالذات .

والذى لا شك فيه ان الانسان لا يولد وعقله صفحة بيضاء كما زعم « لوك » وانما يولد وعنده قوى تدفعه فى بعض المواقف للقيام بتصرفات تخدم أغراضه الحيوية . وهذه القوى يمكن أن نسميها « الغرائز » أو « الدوافع » أو « القوى المحركة » [1] أو غير ذلك من الأسماء التى شاع استعمالها فى ميادين علم النفس الديناميكى بمختلف تشكيلاته . وهذه المصطلحات جميعها أنواع من العملة الصالحة للاستعمال ، ويمكن احلال أحدها محل الآخر فى الوقت الحاضر دون أى خسارة على شرط أن نفهم قيمة كل منها فهما جيدا .

الغرائز والنضج :

ويعترض على هذه الفكرة بأن أنواع السلوك لا تظهر كلها فى أول الحياة . ولهذا لا يمكن اعتبارها فطرية .

فيرى « واطسون » مثلا أن هناك ثلاثة أنواع من السلوك الغريزى ، وهى : ارجاع الخوف « Fear Response » ، وارجاع الحب ، وارجاع الغضب . فارجاع الخوف تظهر عند الاستماع للصوت العالى أو فقد السند ، وارجاع الحب تظهر عند المداعبة ، وأرجاع الغضب تظهر عند تقييد الحرية فى الحركة . وكل ما يظهر بعد ذلك من أنواع السلوك مكتسب — فى نظره — من البيئة نتيجة للتعلم الشرطى .

= والنظريات فيصيبهم الاضطراب والتناقض وتبدو أقوالهم وكتاباتهم مفككة متناقضة لا وحدة فيها . ذلك لأنها تقوم على بصر زائغ وعلى الجرى مرة وراء هذا ، ومرة اخرى وراء ذاك وعلى النقل تارة من هنا وتارة من هناك .
اما الأقوال والكتابات والآراء الصادرة عن مثل هذا الموقف فانه يعسر فهمها على قارئها وسامعها ويعسر احيانا على كاتبها وقائلها لأنها صادرة فى سرعة وعن غير هضم . ومن العجيب ان يفسر هذا العسر احيانا على أنه نوع من العمق .

(1) Instincts, Drives, Motives, Urges, Propensities, Needs, Tendencies.

ومعنى هذا ان الناحية الجنسية بصورتها الكاملة مكتسبة أيضا لأنها لا تظهر الا فى جزء متأخر من حياة الانسان .

ولكنه واضح أن هذا الرأى لا يمكن الأخذ به فالبذرة مثلا توضع فى الأرض ، وتروى ، ثم تظهر الأوراق ، ثم تظهر الزهرة فالثمرة . وليس معنى تأخر ظهور الورق والزهر والثمر ان هذه أشياء مكتسبة أو أن الاستعداد لها لم يكن كامنا فى البذرة نفسها . فتأخر ظهور الشىء لا ينفى فطريته بحال من الأحوال . ولهذا ينتفى اعتراض القائلين بأن الضحك ، أو السيطرة ، أو الخضوع ، أو الاجتماعية ليست استعدادات فطرية لأنها تظهر متأخرة . وربما كانت هذه الظواهر غير فطرية ، ولكن تعليل هذا يكون بعلل أخرى غير تأخر ظهورها . ولهذا تنتفى حجج « بردجز » و « ملر » و « دولارد » وأمثالهم فى هذا الاتجاه .

الفصل بين الغرائز :

واعترض بعض علماء النفس على نظرية « مكدوجل » فى الغرائز انها تتحدث عن غرائز مستقل بعضها الآخر ، فهذه غريزة الوالدية ، وتلك غريزة المقاتلة ، وأخرى هى غريزة البحث عن الطعام .. الى غير ذلك مما يقرب من عشرين غريزة . ولكن هذا الذى نسب الى « مكدوجل » فيه شىء من المبالغة . فـ « مكدوجل » تحدث عن الغرائز فى الحياة النفسية كما يتحدث عالم التشريح عن العين ، والأذن ، وعن هذه العضلة وذاك العصب ، ومع ذلك لا يهمل عالم التشريح ما هنالك من تكامل الجسم . كذلك « مكدوجل » كان من أول من تحدثوا عن التكامل النفسى والتكامل الجسمى [1] .

على أن هذا الاعتراض له بعض الوجاهة ، فقد أسىء فهم الغرائز فأصبح بعض المفسرين والمربين يفسرون بعض المشكلات على أساس غريزة واحدة ، فيقولون : هذا الولد عنده غريزة المقاتلة قوية ، وعلى هذا نعمل معه « كذا وكذا » ولا شك ان هذه نظرة ضيقة ضارة ، فهى تهمل تآزر الدوافع المختلفة ، وتهمل العلاقة الوظيفية الكلية بين الانسان وبيئته فى ماضيه

(١) راجع كتاب مكدوجل « Physiological Psychology »

وحاضره ، وتهمل أهداف الانسان التى يوجه طاقته النفسية ودوافعه مجتمعة الى تحقيقها [1] .

فالخطأ ليس فى النظرية ، وانما هو فى التطبيق الذى أوحى به بعض القصور فى فهم النظرية أو فى عرضها .

والذين يقدمون هذا الاعتراض هم أصحاب نظرية الجشتالت ؛ وهم يؤمنون بالكلية ، ولكن التفاصيل لا تنتفى معها الكلية ؛ فالمثلث له تفاصيله من رءوس ، وزوايا ، واضلاع ، ولكن هذا لا يمنع من أن له مثلثيته الكلية ؛ فليس معنى تحدثنا عن ناحية ما اننا نسينا أنها عديمة المعنى بمفردها ؛ وانها تشتق معناها من الكل الذى تنتمى اليه . كذلك كون الانسان عنده استعداد للهرب لا يمنع من كونه كائنا حيا يعمل ككل .

يقول أصحاب نظرية الجشتالت — وعلى رأسهم « ليفين Lewin » — ان السلوك لا يكون نتيجة للغرائز ، وانما ، هو نتيجة لاختلال التوازن ؛ والسلوك يؤدى الى اعادة الاتزان . واختلال التوازن هذا يؤدى الى حالة توتر الكائن الحى والسلوك يقصد به انهاء حالة التوتر . وفكرة التوتر قائمة على فكرة القوى واتجاهاتها فى داخل الكائن الحى وفى خارجه . ومن أبسط الأمثلة لأعادة الاتزان أن الشخص اذا كتب خطابا لوالده فانه لا يهدأ الا اذا أودعه صندوق البريد ، ولكى يصل الى هذا يقوم بسلوك يؤدى الى الايداع ، والى حالة الاتزان والهدوء .

ورد آخر على هذا الاعتراض : أن الذى يتمعن دراسة القائلين بنظرية الغرائز — كـ « مكدوجل » و « تانسلى » و « فرويد » و « آدلر » و « ثاولس » وغيرهم — يرى أنهم يتكلمون عن طاقة غريزية عامة ومسالك خاصة ، فيتكلم « ينج » عن الطاقة الحيوية ، ويتكلم « فرويد » عن « الهى » ويتكلم « بيرت » عن الانفعالية العامة ، ويتكلم « مكدوجل » عن المنبع العام للطاقة البشرية .. وهكذا .

ومعنى هذا أنه يمكن التوفيق بسهولة بين فكرة الجشتالتيين وفكرة

(١) راجع الباب الثانى « الخصائص الأساسية للحياة النفسية »

أصحاب نظرية الغرائز ؛ فكلا الفكرتين تتضمن الايمان بالكلية وتفاصيلها ، وكلاهما تؤمن بالقوى الخارجية والداخلية ، وكلاهما تؤمن باعادة الاتزان لازالة التوتر مع اختلافات فى أسلوب البحث وفى عرض نتائجه .

عموم الغرائز فى أفراد النوع :

ومن المسلمات فى نظرية الغرائز انها عامة فى أفراد النوع . وقد اعترض الكثيرون خصوصا علماء « الانثربولوجيا » على هذا التعميم ، فقد سجلت « مرجريت ميد Margaret Mead » وغيرها الاختلافات الشاسعة بين تصرفات افراد القبائل المختلفة وطرق معيشتهم فهناك قبيلة « ارابش Arapesh» لا يميل أفرادها للمقاتلة ، فهم أناس هادئون مسالمون وقبيلة أخرى تجد أفرادها يميلون للعدوان والعنف فى حركاتهم وتعبيراتهم وتصرفاتهم وهناك قبيلة ثالثة لا تظهر النزعة للملكية عندهم .

ولكننا نشك بعض الشيء فى عمق هذه الملاحظات وفى اتساعها ، ونشك فى صحتها أو فى صحة المقصود عند وصفها والتعبير عنها ، الا اذا أخضعت للتجريب والملاحظة على نطاق واسع . ومع هذا فقد أكد أصحاب نظرية الغرائز ان الغرائز شديدة التأثر بظروف البيئة لدرجة تجعل من العسير جدا دراستها . ومرونة الغرائز عند الانسان وشدة تأثرها بما عنده من ذكاء وثقافة هى التى موهت فكرة الغرائز على الباحثين الى أن جاء « داروين » فـ « وليم جيمس » فـ « مكدوجل » .

الغريزة والانفعال :

كذلك كان من بين مسلمات « مكدوجل » فى نظرية الغرائز ان كل غريزة لها انفعال مركزى ، وهذه من أضعف النقط فى نظرية « مكدوجل » وقد ظهر هذا الضعف فى عرض « مكدوجل » نفسه ، فكان واضحا عندما نسب الحنو للوالدية ، والغضب للمقاتلة ، والشهوة للجنسية ، ولكن لم يكن واضحا عندما أراد تحديد الانفعال المصاحب لغريزة التملك ، والحل والتركيب ، والاجتماعية ، والضحك ، والنوم . والواقع انه تعثر فى هذا .

(1) J. Drever : The Instinct of Man. Educational Psychology.

وقد هاجمه « دريفر » [1] وقال بالغرائز غير أنه لم يوافق على فكرة انفعال أولى خاص بكل غريزة فهو يرى أن الفعل الغريزى يصحبه اهتمام « Interest » وهذا الاهتمام يزيد باعتراض سبيل الفعل الغريزى . واعتراضنا على رأى « دريفر » ان هذا لا يفسر اختلاف الغضب (المصاحب للمقاتلة) عن الخوف (المصاحب للهرب) وقد بينا كذلك فيما سبق أن الانفعال يكون واضحا اذا كان الدافع يتطلب اجراء سريعا كالمقاتلة ، ويكون الانفعال غير واضح اذا كان الدافع لا يتطلب سرعة فى الاجراء كالتملك والاستطلاع . ولكن هذا الرأى الذى أوردناه يبين السر فى وضوح الانفعال وعدم وضوحه ولا يبين السر فى تميز انفعال فى جوهره عن انفعال آخر .

على اننى أرى أن « مكدوجل » — وان كان قد أدى خدمة كبرى بتقديمه نظرية الغرائز — يبدو انه بالغ فى تفصيل الغرائز وتعديدها ومشكلة كهذه رهينة بتقدم البحث . وليس معنى هذا انى معترض على تقسيماته ؛ ولكن معناه انى أعلق الحكم عليها . فأنا لا أوافق الذين ينقدون « مكدوجل » سلبا فقط بقولهم : اعتراضنا عليه فى التحديد ؛ فهم كأنما يريدون أن يحل الغموض محله .

تحديد السلوك الغريزى :

ومن الاعتراضات الضعيفة التى وجهت الى نظرية الغرائز ان السلوك الغريزى ليس محددا فى الانسان وان كان محددا فى الطيور والحشرات ؛ وما دام هذا التحدد منعدما فى الانسان فمعناه اتساع الاختلاف بين أنواع السلوك ، ومعناه انه لا يمكن التسليم بفطريتها ؛ والواقع أن درجة تحدد قالب السلوك تقل فى الكائنات الحية كلما ارتفعنا فى سلم التطور . حقيقة ان اسلوب المقاتلة عند حشرة ما واحد فى كل أفراد نوعها ، ولكنه متعدد متنوع فى أفراد الانسان فى مختلف الأزمنة ومختلف الأمكنة ، وحتى عند الانسان الواحد من وقت الى آخر ، أو على الأقل فى أعماره المختلفة بحسب تعلمه وخبرته . فكل انسان بحسب نظرية الغرائز عنده استعداد للمقاتلة ،

ولكن ما يدعو للمقاتلة يختلف من شخص الى آخر ، وعند الشخص الواحد من وقت الى آخر . كذلك أساليب المقاتلة تختلف من شخص الى آخر ، وعند الشخص الواحد من وقت الى آخر ، ويرجع الاختلاف الى أثر البيئة مما أدى بأصحاب نظرية البيئة الى اتخاذ عدم تحدد أنواع السلوك عند الانسان ذريعة الى انكار فطريتها . ونظرية الغرائز تؤمن بأثر البيئة وتؤمن كذلك بأثر الفطرة أو الوراثة . أما معارضو نظرية الغريزة من أصحاب نظرية البيئة فيرون ان البيئة هى كل شيء . ومن رأيى ألا يؤخذ بفكرتهم على اطلاقها .

الغرائز والتكوينات الجسمية والعصبية :

عند تعريف « مكدوجل » للغريزة قال : انها استعداد جسمى (عصبى) نفسانى فطرى . وعند توضيحه لما يقصد بين أن الكائنات الحية لها من تكويناتها الجسمية ما يساعدها على القيام بالسلوك الغريزى ، فالطير له من تكوينه الجسمى والعصبى ما يساعده على بناء العش . والحيوان له من تكوينه الغددى والعصبى ما يساعده على الاتصال الجنسى . وهكذا .. فذهب الذين يريدون تحطيم نظرية الغرائز الى ان المقصود بهذا ان كل غريزة نجد لها مقابلاتها الجسمية ومقابلاتها العصبية القائمة بذاتها . فهذا عضو للمقاتلة ، وذاك تكوين عصبى للمقاتلة ، وهذا مالم يقصد اليه أحد ؛ وانما المقصود ان التكوين الجسمى والعصبى فى جملته وتفصيلاته من العوامل التى تدخل فى تحقيق الغايات الحيوية للكائن الحى فى جملتها وتفصيلاتها . والعيب فى ناقدى أصحاب نظرية الغرائز انهم استنتجوا ما قصد اليه « مكدوجل » وغيره وبعد ان استنتجوه بدءوا يهاجمونه بالرغم من عدم وجوده .

ومثل التكوينات الجسمية والعصبية وعلاقتها بالغرائز — فى نظرنا — كمثل التكوينات الجسمية والعصبية وعلاقتها بالمقدرات الموسيقية ، والمقدرات اللغوية ، والنواحى الحسية والحركية . فلهذه تكويناتها التى تشترك معها ومع غيرها وتستمد فوق ذلك نشاطها وتوجيهها من التكوين الجسمى والعصبى العام .

وعندما أراد بعضهم أن يستغنى عن كلمة غرائز بكلمة دوافع فطرية قالوا : ان الدوافع تكون فطرية أو وراثية اذا كان لها أساس « بيولوجى » وعرفوا الأساس « البيولوجى » بأنه الأساس العضوى . فالدافع الجنسى فطرى أو وراثى لأن بالجسم التركيب الغددى الخاص به . ووجدوا فى تجارب الأمريكيين وغيرهم ما يسارع الى الربط بين الأمومة أو الجنسية ، والتكوين الجسمى .

وهذه نظرية عجيبة ، اذ أن معناها ان علم الحياة مبنى على الحياة البدنية وحدها ولكنه فى الواقع يتناول الحياة بكافة أنواعها من بدنية ونفسية . وقد برهن علم الوراثة على توارث الصفات البدنية والصفات النفسية على حد سواء . ومن العجيب أن يكون مرجع المشتغلين بعلم النفس أمرا بدنيا ، لا أمرا نفسيا فيكررون لهذا أخطاء السلوكيين والانتحائيين وأمثالهم . على اننا نؤمن من عشرات السنين بأن الانسان وحدة بدنية نفسية تعيش فى بيئة مادية اجتماعية . وهذه التفاصيل النفسية لا ترجع بالضرورة عند درسها من الناحية الوراثية الى مراجع جسمية .

وهذا الخطأ الذى يقع فيه المشتغلون بعلم النفس تحرر منه المشتغلون بالعلوم الطبيعية فبعد ان كان مرجع الظواهر الطبيعية عندهم هو المادة أصبح المرجع أمرا لا يمكن لمسه وهو الطاقة . فانتقلوا من المادة التى يمكن لمسها ووزنها الى القوى واتجاهاتها وعلاقاتها ، وهى أمور لها وجود يختلف عما كنا نظنه عن الوجود المادى .

وحجة المشتغلين بعلم النفس أن الأساس العلمى الوحيد فى نظرهم هو أن يكون مرجعهم جسميا عصبيا يمكن لمسه والاحساس به ، على أن العلم لا يقول : ان اختيار أحد المرجعين — البدنى أو النفسى — دون المرجع الآخر بطريقة اعتبارية صرف يمكن أن يكون منهجا علميا سليما [1] .

الغريزة والغرض البيولوجى :

قيل : ان الغرائز تحقق أغراضا حيوية للكائن الحى فالجنسية تحقق

(١) راجع تاريخ الفلسفة فى العلاقة بين الجسم والعقل من فجر التاريخ حتى الآن .

التوالد والتكاثر واستمرار بقاء النوع الحيوانى . والبحث عن الطعام يحقق تناول الغذاء واستمرار حياة الفرد . واذا أريد تطبيق هذا المبدأ على بقية الغرائز كما صنفها « مكدوجل » أو «وليم جيمس » أو «ثورنديك » لوجدنا شيئا من الصعوبة عندما نصل الى غريزة الضحك ، وغريزة الحل والتركيب ، وغريزة الخضوع . والسر فى هذه الصعوبة ان هذه الأغراض الحيوية واضحة مباشرة أحيانا ، وغامضة غير مباشرة فى أحيان أخرى . ومع هذا يمكن الدفاع عن كل غريزة من حيث خدمتها للأغراض الحيوية . ويمكن فى هذا المقام بيان تآزر الغرائز المختلفة لخدمة هذه الأغراض ، والفرد الذى يفحص ما أمامه من أشياء قبل أن يأكلها يتآزر عنده الاستطلاع والحل والتركيب ، والبحث عن الطعام .. وهكذا .

الغرائز وتصنيفها :

وهناك اعتراض آخر جعله بعض الناس أساسا لترك نظرية الغرائز ، وهو اختلاف العلماء على تصنيفها . فقال « ثورنديك » بما يقرب من مائة غريزة . وقال « مكدوجل » بما يقرب من عشرين . وقال « آدلر » بغريزة واحدة . وقال « فرويد » بغريزتين .. وهكذا . استند البعض على هذا وقال : حيث انهم اختلفوا فى التصنيف فاننا سنتكلم عن الدوافع بدلا عن الغرائز [1] ولا مانع عندى من اتخاذ هذا الاتجاه لاستعمال لفظ جديد لم يصبه أثر من سوء الاستعمال ولكن تعليل التغيير بهذه الصورة ليس فى نظرى مبررا على الاطلاق .

واذا تأملنا تقسيمات الغرائز نجد ان كل عالم كان لديه مبدأ يقيم عليه تقسيماته ، وكان هذا المبدأ أحيانا صريحا ، وأحيانا ضمنيا ، فعندما أخذ العالم بالأغراض البعيدة تجمعت الغرائز ، وعند ما أخذ بالأغراض القريبة تعددت الغرائز ، فاذا ما انتقلنا من الأغراض الى السلوك نفسه تعددت حتى زادت على المائة وليس هذا عيبا فى نظرية الغرائز وانما هو اقامة لتصنيفات مختلفة على مبادىء مختلفة ، كما أقسم الناس اقساما بحسب

(١) راجع كتاب الدوافع النفسية : الفصل الأول . للدكتور « مصطفى فهمى » .

ألوان جلودهم ، ثم أقسمهم أنفسهم مرة أخرى بحسب أطوالهم ، وأقسمهم أنفسهم مرة ثالثة بحسب ديانتهم . وليس معنى اختلاف التقسيمات ان أغير أسماءهم فلا أسميهم أناسا بعد ذلك .

الدوافع والاتجاهات والميول :

ذكرنا حتى الآن ما للغرائز وما عليها ، ويرجع الى هذه الاعتراضات ما اتجه اليه المشتغلون بعلم النفس من الرغبة فى التحدث عن الدوافع ، أو الميول ، أو الاتجاهات . أو القوى المحركة ، أو الحاجات النفسية .

وأغلب هذه الاتجاهات تلتزم شيئا من الغموض حتى لا تقع فى أخطاء نظرية الغرائز بسبب ما التزمته من الوضوح والتفصيل والتحديد .

واذا أردنا أن نحدد كنه ما يتضمنه كل من هذه المصطلحات ، وأردنا أن نقوم بعمليات التصنيف لوجدنا أنفسنا فى الموقف الذى وقفته نظرية الغرائز ، ولوجدناها معرضة لنفس النقد . فالسبب الذى من أجله لا يمكننا أن نتحدث عن الغرائز اطلاقا لا يمكننا من أجله أن نتحدث عن الدوافع اطلاقا [1] كذلك تصنيف الدوافع يخضع لنفس النقد فالدوافع فى نظر البعض اما أولية أو ثانوية .

والأولية فطرية ذات أساس عضوى ، أما الثانوية فيصيبها من عدم التحديد شىء كثير [2] .

والدوافع فى نظر البعض الآخر عضوية كالتنفس ، والتغذية ، والنوم ، والجنسية . وشخصية ترمى الى حفظ الذات كالتغذية ، والهرب . واجتماعية كالمقاتلة ، وحب الاجتماع ، والجنسية . ومشتقة تتكون فى أثناء اشباع الدوافع الأخرى كالعادات . وهذا التقسيم من التداخل بحيث انك تجد الجنسية تقع تحت نوعين ، والتغذية تقع كذلك تحت نوعين ، وهكذا مما لا ترضى عنه الأصول المنطقية التى تتبع فى عمليات التقسيم والتصنيف .

---

(١) انظر مقدمة هذا الفصل .

(٢) حتى أنه يمكننا ان نقول : ان الدوافع الأولية فطرية ذات أساس عضوى والدوافع الثانوية هى ما ليس كذلك .

وهذا الذى قلناه عن الدوافع يمكن أن نقوله عن الاتجاهات ، والميول ، والقوى المحركة ، والغرائز .

ونخرج من هـذا العرض كله بمغزى واحد ، وهو أن الانسان يولد مزودا بطاقات حيوية فطرية ، بعضها عام ، وبعضها خاص وهـذه الطاقات لها من التكوين الجسمى والعصبى ما يعاونها على تحقيق الأغراض الحيوية للفرد والنوع . هذه الطاقات موروثة والدليل على هذا يؤخذ من دراسة واسعة عميقة لعلم التطور [1] ولا يمكن الا أن نسلم بالاستمرار والاتصال فى عالم الحياة بين الانسان والحيوان الراقى .

أما تسمية هذه الطاقة أو الاستعدادات بالغرائز ، أو الدوافع ، أو الميـول ، أو الاتجاهات ، أو الحاجات ، أو النزعات فانه أمر عديم القيمة فى ذاته ويعرض صاحبه لنفس النوع من النقد فى كل حالة كما أوضحنا .

وقد عقدت مجلة علم النفس التربوى البريطانية فى عامى « ١٩٤١ » و « ١٩٤٢ » مساجلة بين أئمة العلماء فى أمريكا وانجلترا لمعرفة ما صارت اليه نظرية الغرائز ، أماتت وأصبحت وديعة فى ذمة التاريخ أم انها ما زالت حية فى ميدان العلم الحى ؟ وانتهت هذه المساجلة التى اشترك فيها « بيرت Burt » ، و « مـايرز Myers » ، و « بـيرز Pears » ، و « ثورنديك « Thorndike » » ، و « فرنون « Vernon » » بأن هـذه النظرية قائمة فى جوهرها ، وان كان بعض التعديل قد تناولها فى بعض تفصيلاتها [2] .

الغرائز وحاجات الطفولة :

وقد وجد بعض المشتغلين بدراسات الأطفال فى العيادات السيكلوجية أن الغرائز — وان كانت تفسر سلوك الأطفـال — لا يسـهل ادراكها ، ووصلوا الى تفسيرات أكثر وضوحا من الغرائز وسـموها بالحاجات ، فالطفل يشعر بالحاجة الى الأمن أو الحاجة الى التقدير ممن حوله أو غير

(١) يظن الناس أن « مكدوجل » هو صـاحب نظرية الغرائز بينما أول من تكلم عن غرائز الانسان هو « داروين » ثم « وليم جيمس » .

(2) Is the Instinct Theory Dead : British Journal of Educational Psychology 1941, 1942.

ذلك . رأى هؤلاء أن تفسير سلوك الأطفال بالحاجات أفيد من الناحية العملية ، ولكنهم اختلفوا فى عدد هذه الحاجات وفى أسمائها . وكان موقفهم من هذا الخلاف شبيها بموقف العلماء من الغرائز . فبينما أراد بعض العلماء الاقتصار على عدد قليل جدا من الحاجات رأى البعض الآخر ضرورة القيام بشىء من التفصيل .

وهناك فى نظر بعض الباحثين ثلاث حاجات أساسية وهى :

١ — حاجة المرء الى النمو .

٢ — حاجته الى أن يكون له ميول .

٣ — حاجته الى أن يكون هو موضوع ميل أو حب .

والمقصود بالحاجة للنمو النمو من جميع نواحيه ؛ فهناك النمو الجسمى ، وهناك نمو المعرفة ، وغير ذلك . ولا شك أن الطفل تشتاق نفسه للنمو ، وتفسر الحاجة للنمو فى موضوع الغريزة بغرائز عدة ، كالبحث عن الطعام ، وغريزة الاستطلاع ، وغريزة الحل والتركيب ، وغير ذلك .

وأما حاجة المرء الى أن تكون له ميول ؛ فانها تبدو فى رغبة الأطفال فى تكوين أصدقاء ، وفى تكوين هوايات وغير ذلك . وأما الحاجة الى أن يكون هو موضوع ميل أو يكون محبوبا من والديه وزملائه ورؤسائه ومواطنيه وغيرهم ، فلا شك أيضا انها حاجة أساسية قد تفسر « بالغريزة » الاجتماعية « وغريزة » السيطرة وما الى ذلك .

والواقع أن الذين يدرسون الحالات الفردية يمكنهم استغلال الحاجات الثلاث السابقة الذكر فى تفسير سلوك الأطفال وفى محاولة توجيههم .

ويرى بعض الباحثين أن الحاجات الأساسية اثنتان ، وهما الحاجة للأمن والحاجة للمخاطرة ، وهاتان النزعتان ظاهرتان فى المجتمع ؛ فالمجتمع يبدو كأن فيه قوة للمحافظة أو صون التقاليد ، وقوة للتجديد والابتداع والمخاطرة وتتنازع هاتان القوتان المجتمعات والأفراد بشكل واضح .

ويمكن تفسير هاتين الحاجتين على أساس الغرائز التى وضع قائمتها « مكدوجل » . ويمكننا أن نتبين فى سلوك الأطفال هاتين النزعتين أو

الحاجتين فبحث الطفل عن الطعام والتصاقه بوالديه هو اتجاه نحو الأمن ، وميل الطفل للمقاتلة وحل الأشياء وتركيبها هو اتجاه نحو المخاطرة . هذا ويمكن الاستغناء عن التفسير المبنى على الحاجة للمخاطرة واعتبارها نتيجة للشعور بالأمن . فالميل للمخاطرة يزداد ويبرز اذا توافر الشعور بالأمن ، فالطفل الذى يهاجم غيره انما يفعل ذلك لوثوقه بقوته ، والفرد الذى يكسب عيشه من عمل معين لا يقدم على تركه الا اذا وثق من عمل آخر أو من احتمال وجود عمل آخر . بذلك نرى أن الأمن والمخاطرة يغذى كل منهما الآخر فكلما ازداد الشعور بالأمن ازدادت القدرة على المخاطرة ، وكلما خاطر الشخص اكتسب من التجارب والثقة بالنفس ما يجعله يؤمن بقوته ويطمئن الى نفسه . بذلك نرى أن الأمن والمخاطرة يؤثر كل منهما فى الآخر ويتأثر به. ويبدو من هذا أن الحاجةالى الأمن هىالحاجة الأساسيةفى نظر بعض الباحثين . ولكن النقد الذى يوجه الى هذا هو أن التقليل من الدوافع أو الحاجات الى حد كبير يجعل التفسير غير مفيد من الناحية العملية .

لهذا نشأ تقسيم آخر أكثر تفصيلا وأكثر فائدة من الناحية العملية سواء فى التفسير أو العلاج ، يقول بأن حاجات الطفولة ست وهى :

١ — الحاجة للأمن	Security
٢ — « للمحبة	Affection
٣ — « للتقدير	Recognition
٤ — « للحرية	Freedom
٥ — « الى سلطة ضابطة	Control
٦ — « الى النجاح	Success

والحاجة الى الأمن تبدو فى النواحى الجسمية والعقلية ، فالطفل يريد أن يأوى الى والدته ، ويريد أن يتغذى ، ويريد أن يأمن البرد والحر وغير ذلك . والأمن العقلى يبدو فى خوف الطفل من كل غريب ورغبته فى بحثه ومعرفته حتى يمكنه بناء على معرفته أن يطمئن اليه أو يبتعد عنه نهائيا ،

فالرغبة فى الأمن رغبة أكيدة ، ولا يتقدم الطفل بسهولة فى ميدان الا اذا اطمأن وشعر بالأمن فى شئونه الحيوية ، وفقدان الأمن يترتب عليه القلق والخوف وعدم الاستقرار .

أما الحاجة للمحبة فتبدو فى أن الطفل يريد أن يشبع حبه لأمه ومن حوله ، ويريد أن يشبع من حبهم له . ويخطىء بعض الآباء اذ يربون أبناءهم تربية « عقلية » مبنية على مجموعة من القواعد الباردة الخالية من كل عاطفة ، بينما يريد الطفل أن يشعر شعورا كاملا بحب والديه له وبحبه لوالديه ، وهذا هو السبب فى أفضلية التغذية الطبيعية من ثدى الأم على التغذية الصناعية ، ففى الأولى تحتضن الأم طفلها ويتمتع الطفل بأمرين الغذاء والحنان . وأما التغذية الصناعية فتخلو غالبا من شعور الطفل بحنان أمه . ولذا يحسن فى حالة الأطفال الذين تضطرهم ظروفهم الى تغذية صناعية أن تحملهم أمهاتهم الى صدورهن ويجلسن الجلسة التى ينصح بها أطباء الأطفال فى حالة اعطائهم غذاءهم .

وأما الحاجة للتقدير فانها تبدو فى شغف الطفل بأن نعترف به ونشجعه اذا مشى أو تكلم ، ولا نقدم عليه غيره فى كل مرة ، ولا نهمله ونهتم بأخيه الى غير ذلك .

وميل الطفل للحرية يبدو من غضبه اذا قيدنا حركاته ، ومن شغفه باللعب والتسلق والتزحلق والجرى ، وميله للحرية فى الحركة يتبعه ميله لحرية الكلام وحرية التفكير . والحرية هى التى تساعد على النمو . غير ان الطفل يتضايق من الحرية الكاملة ، فهو يود أن يعلم من آن لآخر ما يراد منه عمله ، ويود أن يتأكد من سلوكه ان كان يوافق عليه الغير أم لا . فكأن الطفل يجب أن تكون أمامه سلطة ضابطة ترشده وتوجهه ولا تقيده بقيود جامدة .

وكذلك يميل الطفل للنجاح ويتطلع اليه ، والنجاح هو الذى يجعله يثق بنفسه ويشعر بالأمن ويقوم بمحاولات أخرى لتحسين سلوكه ، فالنجاح فى أول خطوة يخطوها الطفل عند أول تعلمه المشى هو الذى يدفعه الى محاولات أخرى .

هذه حاجات نفسية ، وهناك حاجات بدنية فسيولوجية ؛ كالحاجة للنوم والحاجة المكتسبة للتدخين والحاجة للتنفس والغذاء .

وهناك تقسيمات أخرى للحاجات النفسية . ولسنا متجهين الى عرض جميع أنواع التقسيمات ؛ ذلك لأننا اكتفينا بالتقسيم الذى ثبتت قيمته التفسيرية والتطبيقية .

وهذه الحاجات التى ذكرناها ليست مقتصرة على الأطفال وانما هى تفسر بسهولة سلوك الكبار أفرادا أو جماعات . وكل ما تمتاز به الحاجات عن الغرائز أنها عملية من حيث قدرتها على تفسير السلوك وتوجيه العلاج . وعلينا أن نتذكر أن الحاجة ليست نهائية ، وانما هى بدورها يمكن تفسيرها على أساس الغرائز أو على أساس الدوافع بحسب التسمية التى نميل اليها .

النزعات الفطرية والتعليم :

كانت مشكلة التعليم قديما مشكلة ادراكية صرفا ، فكان المدرس يهتم بناحية المعرفة ، والطفل عليه أن يفهم ويحفظ ما يلقى عليه من المعلومات ، ولكن أصبح المربون يهتمون الآن بالدافع لكسب المهارة ، واستثارة هذا الدافع هى الخطوة الأولى التى ينبنى عليها تحرك الطفل واندفاعه نحو غاية معينة يسعى لتحقيقها . وفى أثناء نشاط الطفل لتحقيق هذه الغاية المعينة يقوم بسلوك عقلى وحركى . هذا السلوك العقلى والحركى يتحسن ، ويطلق على هذا التحسن فى النواحى العقلية والحركية اسم التعلم . تغير الحال اذن فبعد أن كان الاهتمام منصبا على التعليم أصبح منصبا أكثر على التعلم ، والفرق بين هذين الاتجاهين هو أن الرأى الحديث يهتم بنشاط المتعلم أو بفاعليته ، بينما الرأى المألوف يهتم بنشاط المعلم وفاعليته .

لذلك اختلفت دور التعليم الحديثة عن دور التعليم المألوفة ففى الأخيرة يجلس المتعلم ، ويقوم المعلم بنشاط كبير فى الشرح والتفهيم ، ويقتصر عمل المتعلم على الاستماع وقبول ما يلقى عليه . واما فى دور التعليم الحديثة فان المتعلم يقوم بنشاط البحث والتنقيب واجراء التجارب ، ويقتصر عمل المعلم على التوجيه متى لزم الأمر. والرأى الحديث القائم على فاعلية المتعلم

ونشاطه يعترف بأن للطفل غرائز أو قوى أو دوافع أو محركات تجعله أميل الى الفاعلية منه الى الاقتصار على الانفعالية أو مجرد التأثر ولأجل أن نفهم ما يقصد من أن عملية التعلم مبنية على تنشيط الكائن الحى باستثارة غرائزه أو دوافعه أو قواه نذكر مثالا من التجارب العديدة التى أجراها علماء النفس . ولنأخذ تجربة أجراها « مكدوجل » [1] اذ وضع لكلبه الجائع قطعة من الخبز (بسكويت) فى صندوق مقفل بطريقة معقدة . فالجوع هنا مستثار وتحركه عوامل بعضها احساسات داخلية وبعضها احساسات خارجية فيحاول الكلب الحصول على « البسكويت » . فاستثارة الدافع الغريزى أو الطبيعى نشطت الكائن الحى للقيام بسلوك يرمى الى الحصول على « البسكويت » هذا السلوك يتعدل ويتهذب الى أن ينجح فى الوصول الى غايته وبعد مرات عدة يكتسب الكلب مهارة فى فتح الصندوق . هنا يتعلم الكلب فتح الصندوق ، وكان لابد لهذا من دافع أو قوة محركة ، فالتعلم هنا ما هو الا تحسن فى أساليب الكلب ووسائله لاشباع دوافعه التى تحفزه للسعى والنشاط والمحاولة .

وبنفس الطريقة يمكن استثارة الأطفال لاشباع دوافعهم أو غرائزهم المختلفة ، وفى أثناء اشباعهم لها يتعلمون أشياء كثيرة تزداد بها مهارتهم وكفايتهم لمواجهة مشكلاتهم .

لنأخذ مثالا بسيطا وهو حفظ جدول الضرب . هناك عدة طرق يمكن اتباعها ، منها أن يؤمر التلميذ بحفظه بعد فهمه لأساسه ، فاذا لم يحفظه يغرى بالمكافأة أو يهدد بالعقاب أو يثار بالتنافس الى أن يحفظه ، أو يحلى جدول الضرب بأساليب لطيفة تجعله سهل الاستساغة ، أو يتعلم الطفل جدول الضرب حتى يمكنه القيام بعملية البيع والشراء ، أو بناء حظيرة للدواجن ، أو معرفة ما تتكلفه دواجنه للطعام أو غير ذلك . وظاهر أن الطريقة الأخيرة أحب الى النفس من غيرها ، وهذه الميزة ناشئة من أن جدول الضرب لا يحفظ فيها لغير غاية ، وانما عملية فهم الجدول وحفظه نوع من النشاط المهم

(1) Mc Dougall : An Outline of Psychology.

لاشباع غايات أخرى يتحقق فى اشباعها التعبير عن الغرائز أو الدوافع النفسية المختلفة من سيطرة وحل وتركيب ولعب واجتماع واستطلاع وما الى ذلك .

وفى طرق التدريس المألوفة يمكن استغلال دراسة الغرائز أو الدوافع الأولية فى جعل الدروس مشوقة ، ففى دروس مبادىء العلوم لا يصح الاكتفاء بالالقاء والشرح ، وانما يصح استثارة الميل الى الاستطلاع فى التلاميذ ؛ مما يجعلهم يفكرون فى السبب فى ظاهرة معينة ، والحكمة منها ، وغير ذلك . وفى مثل هذه الدروس أيضا نعطى للتلاميذ فرصة رسم النماذج مما يشبع فيهم السيطرة ، والحل والتركيب ، والاستطلاع ، ويصح تشجيع التلاميذ على جمع نماذج خارج الفصل مما له علاقة بدروسهم واستحضارها لتركيبها وعمل المتاحف منها ؛ وفى هذا اشباع لميل التلاميذ الى الجمع والاقتناء ، والاجتماعية والسيطرة وغير ذلك .

ولا شك أن أى درس من الدروس المألوفة اذا أعطى لفصل من التلاميذ — يتفق هذا الدرس مع قوته — يمكن جعله مشوقا بمثل ما تقدم من الطرق . هذا اذا لم يحدث تغيير جوهرى عام فى أساليب التعليم .

ويلجأ كثير من المدرسين والآباء لحل مشكلة النظام أو التعليم عن طريق اثارة الخوف أو الهرب أو الخضوع ، ويحسن — ما أمكن — الا يعتمد على مثل هذه الدوافع ، فالاعتماد عليهما وان أدى الى نتائج سريعة ، الا أن له نتائج سيئة أكثر رسوخا وأشد تأثيرا ، فيترتب عليهما تنشئة الطفل الجبان المتردد القليل الثقة بنفسه ، أو الطفل الثائر الذى يصعب ضبطه تحت أى سلطة مرشدة .

ونختم هذا بأن نقول : ان الغرائز أو الدوافع الأولية هى مصادر الطاقة البشرية وهى الأسس الهامة التى يجب أن تستغل فى تكوين عادات النشء وميولهم وأخلاقهم ، فعلينا أن نبدأ بها لتوجيه السلوك ونرجع اليها فى محاولة فهمه .

خاتمة :

رأينا مما تقدم انه لابد لنا من افتراض « غرائز » أو دوافع ، أو قوى ، أو نزعات لتفسير السلوك ولتوجيهه . ولكن علينا أن نتذكر دائما ان التفسيرات الضيقة والتوجيهات المبنية على أساس ضيق تغفل المبادىء الأساسية التى قدمناها ، فهى تغفل تعدد العوامل الداخلية فى الفرد والعوامل الخارجية فى البيئة ، وتهمل فكرة تشابك هذه العوامل فى صورة كلية شاملة متماسكة .

فمن الخطأ أن نقول : ان التلميذ الذى يسرق يحتاج الى أن نعلى فيه غريزة حب التملك . والتلميذ الذى يشاغب يحتاج الى أن نعلى فيه غريزة السيطرة . والتلميذ الفضولى يحتاج الى اعلاء فى غريزة حب الاستطلاع . فهذه العيوب عيوب الشخصية كلها ، ولكى نفهمها لابد أن نرسم صورة كاملة للشخصية حاضرها وماضيها ، فربما يسرق التلميذ لأن السرقة هى أيسر السبل للحصول على ما يقضى به حاجاته ، وربما كان لخوفه ممن حوله وعدم اطمئنانه لهم ، وربما كان لحرمانه من حب أحد أبويه ، وربما كان لهذه الأسباب مجتمعة ، وربما كانت هناك أسباب غير ما ذكرناه [1] .

والمهم فيما عرضناه ان الطفل لا يولد خلوا من القوى والدوافع ، وانه ليس افتئاتا على العلم ان نسميها « غرائز » اذا فهمنا مدلول الكلمة بصورة معدلة تختلف بعض الشىء عن الصورة التى قدمها بها « مكدوجل » . هذه القوى أو الغرائز يمكن استغلالها فى اطار الوظيفية ، والكلية ، والغرضية لفهم سلوك البالغين والأطفال ولتوجيهه .

بهذا صار للتربية معنى جديد ، فبعد أن كان المفروض أن المربى يمكنه أن يقوم بأى عمل لتكوين الطفل بالصورة التى يريدها أصبحت مهمة المربى محصورة فى تهيئة الظروف لانماء القوى الموجودة فى الطفل على أحسن وجه ممكن . وهذه القوى شديدة المرونة عند الانسان ، خصوصا فى طفولته ، ولذا يمكن تعديلها الى درجات بعيدة المدى .

---

(١) بينا ذلك فى كتاب أسس الصحة النفسية ودللنا عليه بحالات كثيرة .

المراجع

١ — أسس الصحة النفسية للدكتور عبد العزيز القوصى

2. Fox : Educational Psychology.
3. James, W. : Talks to Teachers.
4. Meredith : Psychology Applied to Education.
5. Sturt & Oakden : Modern Psychology and Education.
6. G.W. Allport : Personality. A Psychological Interpretation.
7. Symposium : Is the Instinct Theory Dead. British Journal of Educational Psychology 1941-1942.

obeikandl.com